منهج عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره "معارج التفكر ودقائق التدبر"

جهاد محمد النصيرات، عبيدة عبدالحكيم أسعد *

ملخص

يتضمن هذا البحث محاولة لتتبع منهج الشيخ عبد الرحمن حبنكة في تفسيره، وسَبْقُ ذلك بتعريف عنه وعن تفسيره وعن كتابه قواعد التدبر الأمثل الذي بنى تفسيره عليه.

وقد ظهر من خلال البحث أن تفسيره لا يخلو من انتقادات مع الإيجابيات الكثيرة فيه، فهو مع اهتمامه بالمأثور والمناسبات والوحدة الموضوعية والقراءات المتواترة واللغة وغيرها، إلا أنه ضَمَّنَ تفسيره إسرائيليات لم يرُدَّها كلَّها مع استخدامه لطريقة ترتيب النزول الظنية في بناء التفسير عليه، إضافة إلى خروجه عن النص أحيانًا باستطرادات لا طائل منها، وعدم توثيقه لكلام العلماء أحيانًا.

وقد بان لي أن تفسيره زاخر بالعلوم الكثيرة والمعاني الجليلة، فهو تفسير موسوعي.

الكلمات الدالة: عبدالرحمن حبنكة، التفسير.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أنعم على هذه الأمة بنعمة الإسلام، وأنعم عليها بخير نبي للأنام، وجعل ورثة هذا العلم من العلماء المجتبين الأخيار، الذين حفظ الله بهم هذا الدين، جيلاً بعد جيل، حتى أيامنا هذه، ففي كل جيل نرى أناساً بَزُّوا أقرانهم علماً، وسبقوهم فضلاً، أولئك هم صفوة الله في هذه الأمة، كيف لا وهم يحملون قلماً ذاباً مدافعاً عن دين الله، وهم الذين يُوَعُّون الناس ويبينون لهم حقائق دينهم، وقد رأينا من أبناء القرن الماضي الكثير من العلماء، منهم ما زال حياً ومنهم من سبقت إليه يد المنية، وهؤلاء كثر كأمثال الدكتور محمد عبد العظيم الزرقاني، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد عبد الله دراز، وأبو الأعلى المودودي، والساعاتي، والدكتور مصطفى الزرقا والدريني، وغيرهم الكثير. وممن برز في القرن الماضي أيضاً عالم هو مدار هذا البحث، وهو الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، جزاه الله عن أمة الإسلام خيراً، فقد كان عالماً ورعاً صاحب قلم ولسان، كتاباته خير شاهد على غزارة علمه، فقد كتب فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وفي أصول الدين، وفي علوم اللغة، وفي الفقه والفكر والدعوة وغير ذلك.

لكننا في هذا البحث سندرس منهجاً للشيخ في أحد كتبه العظيمة الجليلة، وكل كتبه كذلك، وهو تفسيره الذي كتبه في آخر سنِيِّ حياته وتوفي ولم يكمله، تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر".

وقد تناول أحد الطلاب في مرحلة الماجستير هذا الموضوع[1] إلّا أنه لم يوَفّق في تبويبه بشكل علمي دقيق، كما أنّه أغفل بعض الجوانب عند الحديث عن الشيخ ومنهجه، وهو ما سأحاول إبرازه في هذه الدراسة.

مشكلة الدراسة

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية:

١-من الشيخ عبد الرحمن حبنكة، وما المنهج العام لتفسيره؟
٢-ما منهج الشيخ في التعامل مع القضايا الأثرية؟
٣-ما منهج الشيخ في التعامل مع القضايا اللغوية؟
٤-ما منهج الشيخ في التعامل مع القضايا العقلية؟
٥-ماذا يؤخذ للشيخ وماذا يؤخذ عليه؟

أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة من خلال النقاط الآتية:

١-أنها تأتي للتعريف بمنهج عالم معاصر في تفسيره.
٢-أنها تأتي لبيان إيجابيات وسلبيات طريقته في التعامل مع الآيات، مما يجعلنا نعرف الخطوط الصحيحة في التفسير

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، عمان. تاريخ استلام البحث ٢٠١١/١١/٢٢، وتاريخ قبوله ٢٠١٣/٤/٧.

© ٢٠١٣ عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

والخطوط الخاطئة والتي كان من الأحرى بالمفسر تجنبها.

أهداف الدراسة

من خلال ما سبق يتبين أنّ هذه الدراسة تهدف لعدة أمور هي:

١-بيان من هو الشيخ عبد الرحمن حبنكة، وما هي أبرز معالم تفسيره.

٢-بيان ما هو منهجه في التعامل مع القضايا الأثرية واللغوية والعقلية.

٣-بيان ما هي أهم الإيجابيات وأهم السلبيات في تفسيره.

منهج الدراسة

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فهو المنهج الاستقرائي والتحليلي، فهي تقوم على استقراء تفسيره وقواعده، ومن ثم تحليلها وبيان المنهج التفصيلي الذي سار عليه، وتحليل هذا لبيان أهم ما له وأهم ما عليه.

خطة الدراسة

تشتمل هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة مباحث، على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بالمفسر والتفسير، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

المطلب الثاني: التعريف بتفسير: "معارج التفكر ودقائق التدبر".

المبحث الثاني: منهج الشيخ عبد الرحمن حبنكة في تفسيره، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: المنهج العام الذي سار عليه وأهم مصادره في تفسيره

المطلب الثاني: منهجه في التعامل مع القضايا الأثرية، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تفسير القرآن بالقرآن.

المسألة الثانية: تفسير القرآن بالسنة.

المسألة الثالثة: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين.

المسألة الرابعة: موقفه من أسباب النزول.

المسألة الخامسة: المكي والمدني

المسألة السادسة: موقفه من القراءات القرآنية.

المسألة السابعة: موقفه من الإسرائيليات.

المطلب الثالث: منهجه في التعامل مع القضايا اللغوية، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما يتعلق بدلالات الألفاظ والقضايا الصرفية

المسألة الثانية: ما يتعلق بالقضايا النحوية

المسألة الثالثة: ما يتعلق بالقضايا البلاغية

المطلب الرابع: منهجه في التعامل مع القضايا العقلية:

المسألة الأولى: المناسبات

المسألة الثانية: التفسير الموضوعي

المسألة الثالثة: القضايا العلمية

المسألة الرابعة: القضايا العقدية

المسألة الخامسة: ترتيب القرآن

المسألة السادسة: اهتمامه ببيان السنن الإلهية

المبحث الثالث: القيمة العلمية لهذا التفسير، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ما يؤخذ للتفسير.

المطلب الثاني: ما يؤخذ على التفسير.

الخاتمة.

المبحث الأول: التعريف بالمفسر والتفسير

المطلب الأول: التعريف بالشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنيم حبنكة الميداني، وُلد رحمه الله في العشرينيات من القرن الماضي [عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م] في حي الميدان بدمشق[٢]. نشأ – رحمه الله – في بيت جده مرزوق وعاش في كنفه إلى أن جمع الله شمل أبيه بالعائلة – بعد أن كان لاجئاً في الأردن بعد توقف الثورة السورية – والتي كان ينفق عليها الحاج مرزوق بما يعود عليه من تربية الأغنام واستثمار أصوافها وألبانها وما ينتج عنها[٣] .

أما عن حياته العلمية فقد كان للبيئة الداخلية والخارجية أثر في نبوغه العلمي؛ فقد نشأ رحمه الله في بيتٍ أهله ما بين عالم مفكر مجاهد تمثل بأبيه، أو محب للعلم وأهله، ساع في خدمته تمثل في أمه وجده. فوالده الشيخ حسن نشأ في بيتِ والده الحاج مرزوق في أسرة بدوية محبة للعلم والعلماء، أنهى المرحلة الابتدائية في مدرسة في حدود الشام القديمة ثم لازم العلماء والشيوخ وأخذ عنهم علم اللغة والفقه والأصول والعقيدة وغيرها من العلوم[٤]، وله تلاميذ كبار كابنه الشيخ عبد الرحمن حبنكة والشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والدكتور مصطفى الخن وغيرهم. وكان حاد الذكاء حاضر الذهن جريئاً في الحق صُلباً ثابتاً في مواقفه[٥]، عرضت عليه الدولة منصب شيخ الإسلام والقضاء في عهد الوحدة بين مصر وسوريا فرفض ذلك. أسهم في تأسيس رابطة العلماء بدمشق، وكان أمينها العام، ثم صار رئيسها بعد وفاة الشيخ مكي الكناني[٦]،

وتوفي رحمه الله عام ثمانية وسبعين وتسعمائة وألف للميلاد.

أما أمه فهي السيدة نظمية بنت إبراهيم السودان، لقبت من قبل بعضهم بـ"ست الشام وأم طلبة العلم" تميزت بخدمتها للعلم وطلابه، وقد كانت أمية تعلمت من زوجها مبادئ القراءة والكتابة حتى صارت تدرس ذلك للفتيات الصغيرات من حولها، وكانت لا تمل من تقديم الخدمات لكل من يتلقى العلم على يد الشيخ حسن، تقدم الطعام والشراب وتخيط الجبب في ليالي رمضان لتوزيعها على طلاب الشيخ في أيام العيد، حتى غدت أماً حانية خادمة بصمتٍ ورضاً وتسليمٍ[٧].

نشأ الشيخ إذاً مع العلم والدعاة، ولازمهما مبكراً تحت عناية والده ورعايته، والذي كان أول شيخ لازمه وأخذ عنه. بدأ العلم صبياً صغيراً في مدرسة وقاية الأبناء الابتدائية، ثم التحق بعد ذلك بمعهد التوجيه الإسلامي الذي أسسه والده، وفي هذا المعهد نال الشيخ قسطه من العلم والمعرفة، وكان هو والمنتسبون إليه يعتقدون أن الطريقة المتبعة فيه هي الطريق المثلى لتخريج كبار العلماء المحققين القادرين على حل المعضلات والرجوع إلى المصادر واستخراج كنوز العلم منها مع الضبط والتحرير والتدقيق، وكان والده يكلف طلابه ويلزمهم بإعطاء دروس عامة ومواعظ للناس في المساجد ويدربهم على الخطابة أمام الجماهير[٨].

وهكذا سار الشيخ عبد الرحمن برعاية والده وتعليمه وتدريبه، حتى تخرج من المعهد سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين وله من العمر عشرون عاماً لم يتجاوزها، وصار مدرساً فيه لمواد مختلفة لمدة ثلاث سنوات ثم انتسب بعدها إلى كلية الشريعة في الأزهر الشريف والتحق بالسنة الثالثة، وتخرج منها ثم حصل على شهادة العالمية مع إجازة في التدريس. وفي عام ١٩٦٠م أُسندت إليه إدارةُ التعليم الشرعي في وزارة الأوقاف وعمره لم يتجاوز الثانية والثلاثين، وكان عليه مواجهة أمرين: نظام منهار للتعليم الشرعي هذا أولاً، أما ثانياً فهو نظام سياسي يحارب كل ما يمت للإسلام بصلة. فبدأ – رحمه الله– بالجانب الإداري فرسم هيكلاً ينطلق منه إلى التكامل، ثم تلا ذلك بطائفة من المناهج والأنظمة العلمية لم تلبث أن أخذت سبيلها إلى التنفيذ[٩][١٠].

وأمام هذا التطور فيما يتعلق بالعلم الشرعي وقفت السلطات الحاكمة موقفاً سيئاً فقامت باعتقال الشيخ حسن وبعض أبنائه وكثيراً من العلماء، إلا أن الشيخ عبد الرحمن نجا واستطاع أن يذهب إلى السعودية حيث عمل في كلية الشريعة بالرياض لمدة سنتين، ثم تحول إلى كلية الشريعة بمكة المكرمة، واستقر مدرساً في كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى، واستمر هناك قرابة ثلاثين عاماً تقاعد بعدها وقد بلغ السبعين، تفرغ حينها لكتابة التفسير وتدوينه[١١].

مصنفاته: تشهد المكتبة العلمية التي تركها الشيخ له بغزارة العلم والمعرفة، فقد كتب – رحمه الله – في جوانب متعددة مما يصعب حصره هنا، فقد كتب فيما يتعلق بالقرآن كتباً كثيرة أشهرها كتابين وهما "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل" وتفسيره المعروف بـ "معارج التفكر ودقائق التدبر"، وكتب في اللغة العربية أيضاً ومن كتبه: "البلاغة العربية أسسها وعلومها"، وكتب في الفكر وقضايا الأمة كتباً كثيرة منها: "كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة"، و"أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير الاستشراق والاستعمار"، وكتب في أصول الدين أيضاً كتباً كثيرة أشهرها: "العقيدة الإسلامية وأسسها"، وفي العلوم العقلية كتب "ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة" وله كتب في الفقه والأحكام وفي الدعوة والدعاة مما تزخر به المكتبات الإسلامية.

ومن الملاحظ على مؤلفاته التوسع في الكتابة والتحليل والاستدلال والاستنباط بالإضافة إلى سهولة العبارة وحسن التبويب والتنظيم والتنسيق مما يسهل على القارئ قراءتها وفهمها[١٢].

لقد كان رحمه الله عالماً ربانياً جليلاً، صاحب همة وقلم، كتب فأبدع، وعمل فأنتج، حتى وافته المنية بعد أن ابتلي بسرطان القولون ووفاة زوجته، وكان ذلك عام ألفين وأربعة في مكة المكرمة، فجزاه الله عنا وعن المسلمين كل خير.

المطلب الثاني: التعريف بتفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر"

تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر " تفسير لسور القرآن بحسب ترتيب نزولها، فقد أقامه مؤلفه على ترتيب نزول القرآن الكريم، حيث يقول مبيناً سبب اختياره هذا المنهج :"وقد رأيت بالتدبر الميداني للسور أن ما ذكره المختصون بعلوم القرآن الكريم من ترتيب النزول، هو في معظمه حق، أخذاً من تسلسل البناء المعرفي التكاملي، وتسلسل التكامل التربوي، واكتشفت في هذا التدبر أموراً جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية للرسول –صلى الله عليه وسلم –، وللذين آمنوا به واتبعوه، وللذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول مترددين، أو مكذبين كافرين"[١٣]. وقد حاول المؤلف تطبيق ما ذكره في كتابه (قواعد التدبر الأمثل للقرآن الكريم) في تفسيره هذا، يقول رحمه الله: "وبعد فقد فتح الله عز وجل علي خلال تدبري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها، وهذه القواعد تقدم للمتدبرين أصول التفسير الأقوم للقرآن، ولم أجد في المفسرين من اهتم بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها. وقد

رأيت من الواجب علي أن أقدم ما أستطيع تقديمه من تدبر لسور هذا الكتاب العزيز المعجز، ملتزماً على مقدار استطاعتي بمضمون القواعد التي فتح الله بها عليَّ، مع الاعتراف بأن التزامها التزاماً دقيقاً وشاملاً عسيرٌ جداً، بل قد يكون بالنسبة إلى متدبر واحد متعذراً"(١٤).

وقد صدر من الكتاب خمسة عشر مجلداً في خمس مجموعات، كل مجموعة في ثلاثة مجلدات، وقد صدرت المجلدات الثلاثة الأولى (١-٣) من هذا التفسير التدبري عام ١٤٢٠هـ، واشتملت على تدبر ٣٨ سورة من السور المكية، ابتداء من سورة العلق، وانتهاء بسورة ص، وصدرت المجلدات الثلاثة (٤-٦) من المجموعة الثانية عام ١٤٢١هـ، وقد اشتملت على تدبر سورة الأعراف والجن، ويس والفرقان، وصدرت المجلدات الثلاثة (٧-٩) من المجموعة الثالثة عام ١٤٢٣هـ، واشتملت على تدبر سور فاطر ومريم، وطه والواقعة والشعراء والنمل والقصص والإسراء، وصدرت المجلدات الثلاثة (١٠-١٢) من المجموعة الرابعة عام ١٤٢٥هـ، وقد اشتملت على تدبر سور يونس وهود ويوسف، والحجر والأنعام والصافات ولقمان، وسبأ والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف، وصدرت المجلدات الثلاثة (١٣-١٥) من المجموعة الخامسة عام ١٤٢٧هـ، وقد اشتملت على تدبر بقية السور المكية ابتداءً بالدخان وانتهاءً بالمطففين(١٥).

وقد أدرك الشيخ أنّ المنية قد تعاجله قبل إنهاء جميع سور القرآن، وهو ما أشار إليه في مقدمة كتابه: "وإذا لم تسعف القدرات، أو لم يسعف العمر باستكمال هذا التدبر لكل القرآن المجيد، فإن من المفيد جداً أن أقدم ما يفتح الله الوهاب لي فيه، عسى يتم العمل متدبرون لاحقون، محتذين أو مضيفين أو معدلين"(١٦).

وكما مر سابقاً فإن هذا التفسير قد بناه صاحبه وفق كتابه الآخر "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل"، وقد سمى تفسيره بالتفصيل: "معارج التفكر ودقائق التدبر: تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل"، ولذلك لا بد من تعريف بسيط لكتاب قواعد التدبر.

أما قواعد التدبر الأمثل فهي قواعد رأى واضعها أنه اهتدى إليها خلال ممارسته تدبر كتاب الله بعمق وأناة قرابة ثلث قرن أو أكثر، اعتمد في بعضها على السبر الشامل لآيات القرآن الكريم خلال المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي - رحمه الله-. واعتمد -أيضاً- على الرأي الأرجح -بزعمه- من أقوال علماء العربية والمفسرين حول الكلمة واستعمالاتها في القرآن المجيد(١٧).

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في تموز ١٩٧٩ ميلادية. وقد أضاف لهذه القواعد ملاحظات وقواعد أخرى في الطبعة الرابعة للكتاب عام ١٩٨٧ ميلادية، فأصبح عدد القواعد التي ضمّها الكتاب أربعين قاعدة، جُلُّها يتعلق باللغة وعلومها المختلفة من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ، وباقيها يتعلق بقضايا التفسير وأدواته وبعض علوم القرآن.

وأولى الملاحظات حول هذه القواعد أنّها في غالبها ليست جديدة بل هي قضايا بديهية قد تحدث عنها الكثير من العلماء السابقين، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما ذكره حول الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية في القاعدة الثانية حيث قال: "وبالتتبع الطويل اهتديت -بتوفيق الله- إلى أنّ السورة القرآنية متعانقة الآيات والجمل في الآية حول موضوع كلي واحد، كما اهتدى آخرون معاصرون إلى هذه الحقيقة -بفضل الله- إذ أدمنوا النظر الثاقب في كتاب الله"(١٨)، والحقيقة أنّ هذا الأمر الذي اهتدى إليه قد تحدث عنه السابقون للشيخ فضلاً عن المعاصرين له، فقد تحدث الشاطبي في الموافقات عن هذا الموضوع وتحدث من جاء بعده من أمثال الرافعي ودراز وسيد رحمهم الله جميعاً، ثمّ قال: "ولدى البحث الدقيق المتعمق نلاحظ أن السورة القرآنية تشتمل على وحدات معانٍ متماسكة تشبه حلقات مترابطات، مشمولات بحلقة أكبر منها وهي داخلة فيها ومتعلقة بها"(١٩)، وهذا الكلام ردده سيد مراراً في الظلال حول تقسيم السورة إلى حلقات وأشواط ومقاطع تدور حول محورٍ واحد، وليس اكتشافاً جديداً ولا يحتاج إلى هذا البحث العميق حتى يقرر.

ومن القواعد البديهية التي قررها في القاعدة الثالثة حيث قال: "إنّ من الظواهر في النصوص الأدبية البليغة الرفيعة أنّ النّص قد يكون موجهاً لعدة أهداف، وهذه الأهداف كلها مقصودة من النص، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب به جماعة ذات فئات مختلفات، وعناصر متباينات"(٢٠)، وهذه قضية مقررة في ذهن المفسرين القدامى؛ فالقرآن حمالٌ ذو وجوه، وقد ذكر ابن تيمية في مقدمته شرحاً مستفيضاً في ذلك، فلا تستحق أن تفرد هذه بقاعدة مستقلة.

إذن فالكثير من هذه القواعد قد سبق بها المصنف أو إنها غير مطردة ومتداخلة أحياناً.

فمثلاً: القاعدة الأولى والثانية تتحدثان حول الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، والقاعدة السابعة تتحدث حول تتبع التفسير المأثور لمعنى النص، والقاعدة الحادية عشرة تتحدث حول النظر فيما ورد من أسباب النزول، وكذلك القواعد (٢١ و٢٢ و٢٣ و٢٤) وما بعدها، كلها ذلك يتحدث حول قضايا لغوية لا فاصل بينها، وكان الأحرى بالمصنف -رحمه

الله- أن يجعل قواعده في محاور قليلة ينضوي تحتها الكثير من الفروع والتفصيلات.

ويضاف إلى ذلك كله أنّ الكثير من هذه القواعد ليس مسلماً به بل هي قابلة للنقاش والنقد، ولعل من أهمها ما ذكره في جدول خاطئ في نهاية القاعدة التاسعة للسور المكية والمدنية[٢١]، وما في السور المكية من آيات مدنية وما في السور المدنية من آيات مكية، وقد اعتمد على هذا الجدول في تحليلاته وقواعده التي خطها.

وهذا الجدول لا يسلم من النقد الكثير (سيأتي الحديث عنه لاحقاً)، فنحن نعلم أن ترتيب السور القرآنية وفق النزول هو ظني وشاق ويحتاج لصحة الرواية وسلامة الدراية، ثمّ إنّه من المقرر أن السورة كانت تنزل عبر سنوات طويلة، يتنزل خلالها سور كاملة كما نعلمه من حال سورة البقرة، فكيف يتسنى لنا هذا الترتيب، ولذلك فإنّ أولئك الذين حاولوا ترتيب السور القرآنية حسب النزول من أمثال: محمد عزة دروزة وعبد القادر ملا حويش ومحمد عابد الجابري لم يسلموا من النقد بل والرفض الشديد، ثمّ إنّ مسألة وجود آيات قليلة في سور مدنية مسألة لم تثبت رواية ولا دراية ومع ذلك تعامل معها المصنف -رحمه الله- على أنها بديهية من البديهيات، بل إنه جعل القاعدة العاشرة في: الحكمة من وضع آيات مدنية التنزيل في سور مكية ووضع آيات مكية التنزيل في سور مدنية، كذلك نجد المصنف -رحمه الله- قد اعتمد على الكثير من أسباب النزول التي تحتاج لدراسة مستفيضة في أسانيدها ومتونها، والأمثلة على ذلك كثيرة مبثوثة في الكتاب.

ونجد المفسر أيضاً يعتمد في توجيهاته على آراء مرجوحة في التفسير، فمثلاً عند حديثه عن القسم في القرآن الكريم يتحدث عن القسم في سورة الفجر، ويرى أن الأزمان المذكورة في السورة هي أزمنة إهلاك الله عز وجل أولئك المكذبين الذين ذكروا في السورة[٢٢]، فقد أهلك الله عز وجل ثمود بالصيحة عند الفجر، وكذلك سار بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسى في ليال عشر من أول المحرم في اتجاه البحر إلى صحراء سيناء، وأهلك الله عز وجل عاداً إذ بعث إليهم عند الفجر ريحاً صرصراً عاتية في سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً أي شفعاً ووتراً، والليل إذا يسري يشير إلى تبييت الله عز وجل من يريد إهلاكهم إذ يجعل ليل الإهلاك يسري بهدوء حتى إذا كان وقت الفجر فوجئ المقرر إهلاكهم بما به يُهْلَكون.

فالقسم بهذه الأزمنة كناية عن القسم بالأحداث التي جرت فيها، والقسم بالأحداث هو كناية عن حكمة الله التي قضت بها، وقدرته التي نفذتها، وعلمه الذي أحاط بكل شيء[٢٣].

والحقيقة أن هذا الأمر لا يسلم له فيه وليس الآن الوقت الملائم لمناقشته فيه.

والأظهر من ذلك ما ذكره حول القسم المنفي في القرآن[٢٤]، حيث وردت صيغة (لا أقسم) أو (فلا أقسم) في مواضع ثمانية من القرآن الكريم، وقد خلص إلى أنّ ذكر القسم ونفيه إنّما هو أسلوب بياني مبتكر للدلالة على أن الموضوع مع حال المخاطبين يقتضي اقتضاءين متعارضين: أحدهما يستدعي البيانُ فيه القسم المؤكد للخبر الذي هو المقسم عليه، والآخر يستدعي البيان فيه عدم القسم.

فكان الحل المبتكر في أساليب البيان القرآنية اختيار أسلوب ذكر لفظ القسم، وذكر المقسم به تنبيهاً عليه مع سبقه بأداة نفي. فالوجه الذي اقتضى القسمَ روعي حاله بذكر القسم والمقسم به، تنبيهاً على ما في المقسم به من تأكيد أو حجة هادية إلى أن الموضوع الذي يُراد تأكيده هو متحقق الوقوع.

والوجه الذي اقتضى عدم الحاجة إلى القسم رُوعي حاله بنفي القسم بأداة النفي (لا). انتهى.

وهذا الكلام لا يسلم -أيضاً- من نقدٍ شديدٍ وتكلفٍ كبيرٍ في تطبيقاته، بل لا تتجلى فيه البلاغة القرآنية كما يزعم المصنف - رحمه الله- ويتناقض مع المنهج القرآني والبلاغة الرفيعة التي نزل بها.

ويتناقض مع هذه البلاغة الرفيعة -أيضاً- ما ذكره في القاعدة السابعة والعشرين حول "رعاية فواصل الآيات اهتماماً بالنسق اللفظي"، فإنه شتان بين أن تكون الفاصلة تبعاً للمعنى وأن يكون المعنى تبعاً للفاصلة وللجرس اللفظي في القرآن.

هذه بعض الملاحظات حول كتاب "قواعد التدبر الأمثل" والذي قد بنى الشيخ تفسيره عليه.

المبحث الثاني: منهج الشيخ عبد الرحمن حبنكة في تفسيره

المطلب الأول: المنهج العام الذي سار عليه وأهم مصادره في تفسيره

المسألة الأولى: المنهج العام الذي سار عليه الشيخ في التفسير

يذكر الشيخ في بداية كل سورة (حسب ترتيب نزولها) الأمور التالية[٢٥]:

١- اسمها أو أسماؤها (إن وُجد لها أكثر من اسم كالعلق والقلم والفاتحة)، وترتيبها في المصحف وترتيبها في النزول ومكيها ومدنيها (إن كانت مما قيل إنّ فيها من المكي والمدني، مثل القلم وق ويس والفرقان وغيرها، وإلا فلا يذكر أهي مكية أم مدنية مثل العلق والبلد والطارق وص وغيرها) وسبب تسميتها في بعض الأحيان.

٢- يذكر نص السورة كاملاً وما فيها من فرش القراءات،

بحيث يكون نص السورة في أعلى الصفحة وفرش القراءات في الجزء السفلي.

٣- ذكر ما ورد في السنة بشأن السورة التي يتدبرها ويفسرها قائلاً: مما ورد في السنة بشأن سورة كذا، أو مما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم - بشأن هذه السورة ونحوها، ويذكر مجموعة من الأحاديث الواردة في ذلك، كما يذكر سبب النزول إن وُجد.

٤- ذكر موضوع السورة أو موضوعاتها.

٥- تقسيم السورة إلى دروس- بحسب طولها وقصرها (فبعض السور القصيرة كالكوثر مثلاً تعتبر كلها درساً واحداً)- مقسماً آياتها على عدد الدروس، ويذكر موجزاً عن الدرس وآياته، وقد يجمع الاثنين معاً فيقول: موضوع السورة ودروسها.

٦- ثم يبدأ بالتدبر التحليلي لكل درس من دروس السورة، فيورد الآيات التي يتناولها الدرس ثم بتناول كل آية على حده، فإن كان فيها قراءات بينها وقام بتوجيهها، ثم يتناول الألفاظ والمفردات بالتحليل اللغوي وبيان معانيها ثم يشرح الآية شرحاً إجمالياً موضحاً المعنى العام لها بعد تحليل ألفاظها، ثم يذكر ما يندرج تحتها من دروس، ويذكر أقوال المفسرين بشأن الآية إما بذكر اسم المفسر أو يُجمل الأمر في ذلك غالباً، ثم يذكر ما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم - أو أصحابه في شأن بيان معنى الآية إن وُجد. ثم يختم السورة -غالباً- بذكر ملحق أو أكثر يكون عادة حول بلاغيات السورة وموضوعات أخرى لم يتطرق لها عند شرح آيات السورة.

وامتاز الشيخ في طريقة عرضه وتدبره باستخدامه لمنهج التفسير الموضوعي، وبمناقشاته الكثيرة لأقوال السابقين من مفسرين ونحويين وبلاغيين وغيرهم، ورده لكثير من آرائهم ووصفها أحياناً بالخطأ أو بأنّها لا سند لها، ويعرض أقوالهم غالباً جملة دون ذكر اسم المفسر أو اسم التفسير، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

١- من تفسير سورة المرسلات يقول في الملحق الأخير عن القسم ما نصه: "جاء عند المفسرين تفسير (المرسلات) بالرياح وبالملائكة والأنبياء، وتفسير (الفارقات) و(الملقيات ذكرًا) بالملائكة، ورأيت أنّ هذه التفسيرات لا تستند إلى بيان نبوي، وإنّما هي آراء اجتهادية ذكرها المفسرون" ثم قال بعد أن عرض وجهة نظره وهي طويلة ملخصها أنّ القسم هو على أمور كونية مشاهدة لتأكيد نبأ غيبي، ولا يكون بأمور غيبية ينكرها المخاطب لتأكيد أمر غيبي آخر، قال بعدها: "هذا ما جعلني أستبعد الآراء التي ذكرت في تفسير ما أقسم الله به في صدر سورة المرسلات، باستثناء الرياح لأنّها من آيات الله الكبرى المشهودة في الكون"[٢٦].

٢- من تفسير سورة القمر يقول: "زعم ابن كيسان أن قول الله عز وجل ﴿ ھ ھ ے ﴾ على التقديم والتأخير، وأن الأصل: انشق القمر واقتربت الساعة، متوهماً أن انشقاق القمر سابق لاقتراب الساعة، لقد ظن أن اقتراب الساعة هو قدومها فوقع في الخطأ، مع أن اقتراب الساعة شيء ووقوعها شيء آخر، فاقتراب الساعة حاصل قبل انشقاق القمر حتماً"[٢٧].

وهكذا يمضي الشيخ في متابعة أقوال الأئمة والعلماء من مفسرين ونحويين وأدباء وغيرهم، ولا يُسلم لما ذكروه، ويرد جملة من أقوالهم ويتخذ لنفسه رأياً ومذهباً، الأمر الذي يدل على أدبه الجم وغزارة علمه وقوة فكره وعقله.

ومما يتعلق بمنهجه العام الإحالات في بعض المواضع، وهي إما إحالة على التفسير نفسه، أو إحالات إلى مراجع خارجة عنه سواء كانت من تأليفه وتصنيفه، أم كانت من تأليف غيره من العلماء. ومن الأمثلة على ذلك:

١- عند تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ٱلمص﴾ [الأعراف:١] يقول: "وقد سبق في أول سورة القلم بيان كافٍ حول الحروف المقطعة الموجودة في أوائل بعض السور"[٢٨]، وعند قوله تعالى في نفس السورة من آية ٨٥-٨٧ في قصة شعيب مع قومه مدين يقول: "هذا هو النص الثالث بحسب ترتيب النزول من النصوص العشرة التي جاءت في القرآن المجيد بشأن هؤلاء القوم" ثم يذكر في الحاشية: "انظر الدراسة التكاملية لهذه النصوص في الملحق السادس من ملاحق هذه السورة"[٢٩].

٢- عند تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ۓ ﴾ [الأعراف: ١٩] يقول: "وأورد ابن كثير في كتابه"قصص الأنبياء" قال: حكى السدي..الخ" وفي الحاشية أحال على الجزء والصفحة من كتاب ابن كثير[٣٠]، وفي سورة العصر عند ذكره ما ورد من آثار بشأن السورة يقول في الأثر الأول والثاني في الحاشية: "عن ابن كثير في تفسيره"[٣١] إلى غير ذلك من الإحالات في كتابه.

أما في ختام كل سورة فيرجع الشيخ الفضل إلى الله فيقول: "وبهذا تم لنا تدبر سورة الأعلى على ما فتح الله به"[٣٢]، أو "وبهذا تم تدبر سورة الفجر والحمد لله على فتحه وعظيم منته"[٣٣] ونحوها.

لكن مما يؤخذ على الشيخ رحمه الله في بعض المواضع من التفسير الاعتداد برأيه وما توصل إليه من معان لم ينتبه لها غيره[٣٤]، واعتبار أن ما ذهب إليه هو الأولى بالأخذ والاعتبار، فمن تلك المواضع مثلاً ما ورد عند قوله تعالى ﴿ذ ذ ڈ ڈ ڈ قَبلُ ژ ژ ڑ بَعدِهِم أَفَتُهلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبطِلُونَ چ

[الأعراف:١٧٣] حيث قال: "واستعمال عبارة (أفتهلكنا) دلت على أن اعتذارهم الوارد في الآية إنما يكون حينما يشاهدون بوادر الإهلاك في الدنيا عقاباً لهم على شركهم، إذ الإهلاك هو الإماتة باستئصال شامل بالمهلكات المعذِّبات، والهلاك هو الموت الذي يستهلك وجود الكائن الحي، أما عذاب يوم الدين فلا موت فيه ولا استهلاك يعقبه، وكل ما استعمل في القرآن من مادة الهلاك والإهلاك فهو في الموت والعذاب الدنيوي المميت، ولم أجد من المفسرين من تنبه إلى هذه الفكرة فوجه الاعتذار في الآيتين [١٧٢-١٧٣] ليوم القيامة، يوم الحساب وفصل القضاء، ولكن الفهم الذي فتح الله به علي أولى بالاعتماد والله أعلم"[٣٥].

وفي موضع آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩] حيث قال: "وما فتح الله عليّ في فهم هذه العبارة هو الحق المطابق لقواعد الإيمان"[٣٦].

فيلحظ من هاتين العبارتين اعتداد الشيخ برأيه وما ذهب إليه، وإن كان رحمه الله متصفاً بدرجة عالية من التواضع والاعتراف بفضل الله عليه فيما فتح عليه في تفسير كلام الله تعالى، فلعل ذلك يؤخذ عليه.

المسألة الثانية: مصادر الشيخ في تفسيره

مصادر الشيخ في التفسير كثيرة، شملت كتب التفسير والحديث واللغة والسيرة والتاريخ والنحو والبلاغة والعلوم وغيرها، ويتمثل موقف الشيخ من كتب التفسير وغيرها في أمرين[٣٧]:

الأول: النقل سواء بالنص أو المعنى والتصرف في كلام هذه المصادر.

الثاني: النقد وعدم التسليم بشكل دائم لأقوال هؤلاء المفسرين.

وفي نقله عن تلك المصادر سلك طريقين اثنين:

الأول: ذكر أسماء الذين ينقل عنهم، كقوله: روى الإمام الطبري، نقل ابن كثير في تفسيره، قال القرطبي... وغير ذلك من العبارات التي تدل صراحة على اسم المصدر الذي اعتمد عليه ونقل منه في هذا الموضع أو ذاك.

الثاني: الإشارة إلى جملة المفسرين دون تخصيصهم أو ذكر أسمائهم، كقوله: قال بعض المفسرين، اختلفت أقوال المفسرين، وقد نظرت فيما ذكره المفسرون، إلى غير ذلك من الألفاظ التي لا يصرح فيها بذكر اسم المصدر أو صاحبه.

ومن أهم الكتب التي اعتمد عليها ذاكراً أسماء أصحابها:

١- تفسير الطبري: وقد ورد ذكره كثيراً في تفسيره الأمر الذي يدل على مقدار اعتماده عليه واهتمامه به، وقد نقل عنه في جوانب متعددة، كفضائل السور وأسباب النزول وبيان معاني الآيات وغير ذلك، كما في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ [القلم:٩]، وفي البسملة في أول الفاتحة وغيرها من المواضع المختلفة.

٢- الكشاف للزمخشري وقد استفاد منه في بيان المعاني اللغوية والقضايا البلاغية وغيرها.

وكذلك اعتمد على "أحكام القرآن لابن العربي المالكي"، و"الجامع لأحكام القرآن"، و"مفاتح الغيب للرازي"، و"المحرر الوجيز لابن عطية"، و"البحر المحيط لأبي حيان"، و"تفسير القرآن العظيم لابن كثير"، و"فتح القدير للشوكاني"، و"التحرير والتنوير لابن عاشور".

هذه هي أهم المصادر التي اعتمدها في تفسيره على تفاوت في مدى التأثر ومقدار الاعتماد على هذا المصدر أو ذاك، وهذه المصادر كان يأخذها ويذكر أصحابها، وهو في جانب آخر يعتمد على مصادر لا يذكرها ولا يذكر أصحابها، وإنما يشير إلى جملة المفسرين بعبارات مختلفة، وسلك طريقين في هذا الأمر:

الأول: الإشارة إلى قول المفسرين وإيراده دون تعقيب أو نقد. مثل ما ورد في تفسيره لسورة الفلق حيث قال: "وجاء عند المفسرين تفسير الغاسق في سورة الفلق بالليل، وجاء تفسيره بالقمر لأن القمر يُخسف فيَغسِقَ أي يذهب نوره ويسود ويُظلم"[٣٨].

الثاني: الإشارة إلى قول المفسرين وإتباعه بالنقد والتعقيب وهو الأكثر في معارج التفكر. مثل ما ورد في تفسيره لسورة الفجر عند حديثه عن الأقسام التي أقسمها الله قال: "وقد نظرت فيما ذكره المفسرون من أقوال اجتهادية، فلم أجد فيها قولاً يتضمن مناسبة بين الأزمنة التي أقسم الله بها، وبين الحديث عن إهلاك عاد وثمود وفرعون وجنوده، فلم ينشرح صدري لقول منها"[٣٩]. وغيرها من الأمثلة الكثيرة المبثوثة في تفسيره.

أما مصادره من العلوم الأخرى[٤٠]، فمن كتب الحديث اعتمد على الموطأ والمسند للإمام أحمد والكتب الستة، ومن شروح الحديث اعتمد على فتح الباري لابن حجر وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي وعلى كتابه المسمى: روائع من أقوال الرسول. أما في اللغة فقد اعتمد على كتاب الصحاح للجوهري والدر المصون للسمين الحلبي ومغني اللبيب ولسان العرب، وفي القراءات اعتمد على البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي والمهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر للدكتور محمد سالم محيسن، واعتمد في السيرة على السيرة النبوية لابن

إسحاق وفي التاريخ على قصص الأنبياء لابن كثير واعتمد أيضاً على التوراة في نقله عن الكتاب المقدس في أكثر من موضع.

هذه هي أهم ما اعتمد عليه في تفسيره، والناظر في هذه الكتب يعلم مدى إحاطة الشيخ بالعلوم المختلفة.

المطلب الثاني: منهجه في التعامل مع القضايا الأثرية

يهتم الشيخ عبد الرحمن حبنكة بالمأثور في تفسيره، وقد جعل ذلك قاعدة من قواعد التدبر الأمثل فقال: "القاعدة السابعة: حول تتبع التفسير المأثور لمعنى النص: فهو حري لأن يكون في كثير من الأحيان فهماً صحيحاً وإن لم يكن كاملاً شاملاً لكل ما يهدف إليه النص القرآني، ويشمل التفسير المأثور ما فهمه الصحابة والتابعون، أما البيان النبوي لمعنى النص القرآني فإذا صح فهو الذي يجب المصير إليه، وقد يكون البيان النبوي بعض ما اشتمل عليه عموم النص، أو بعض ما اشتملت عليه دلالاته، فيكون ما جاء في البيان أحد المعاني التي اشتملت عليه دلالاته"[٤١].

أولًا: تفسير القرآن بالقرآن

نحى الشيخ في تفسير القرآن بالقرآن أكثر من منحًى[٤٢]:

الأول: بيان معاني الألفاظ والآيات وما يتعلق بذلك في آيات معينة بما جاء في آيات أخرى: مثال على ذلك ما ذكره عند قوله تعالى ﴿ ڻ ڻ ڻ ڻ ﴾ [الضحى:١١] قال: "ظهر لي أن المراد بنعمة ربه في هذه الآية هي نعمة تعاليم الإسلام التي هدى الله بها رسوله وعلمه إياها، ونعمة آيات القرآن التي ينزل بها عليه الوحي من الله عز وجل، ويدل على هذا الفهم نصوص قرآنية متعددة منها النصوص التالية المشتملة على دلالات واضحات:

١- قول الله عز وجل في سورة القلم (٦٨ مصحف/٤ نزول) خطاباً لرسوله ورداً على متهميه بالجنون ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) ﴾ [القلم:١-٢] بنعمة الهداية والإسلام وما يتنزل عليك من القرآن.

٢- وقول الله عز وجل في سورة الطور (٥٢ مصحف/٧٦ نزول) ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ ﴾ [الطور:٢٩] أي فما أنت بما ينزل الله عليك من نعمة القرآن وشرائع الإسلام.

٣- وقول الله عز وجل في سورة العنكبوت (٢٩ مصحف/٨٥ نزول) بشأن مشركي مكة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٧].

٤- وقول الله عز وجل في سورة الفتح (٢٨ مصحف/١١١ نزول) خطاباً لرسوله چ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ چ [الفتح:١-٢].

٥- وقول الله عز وجل في سورة المائدة (٥ مصحف/١١٢ نزول) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣]... فالنعمة المرادة هنا هي نعمة شرائع الإسلام وأحكام الدين ونعمة الهداية إلى صراط الله المستقيم. وهي التي تلائم امتنان الله عليه بقوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ [الضحى:٧] "[٤٣].

الثاني: بيان التكامل بين نصوص القرآن الكريم في الدلالة على المعنى المراد. مثال على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء:٣١] قال: "الوصية السابعة: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر، إذ كان هذا من عادات بعض أهل الجاهلية من العرب، دل على هذه الوصية قول الله عز وجل چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ...چ[الإسراء:٣١]، ثم أنزل الله عز وجل في سورة الأنعام (٦ مصحف/٥٥ نزول) آية قيل هي ذات تنزيل مدني ضُمّت إلى سورة مكية التنزيل ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ...﴾ [الأنعام:١٥١]... وهذان النصان يتعلقان بقتل الأولاد للتخلص من النفقة عليهم بسبب الفقر المَخُوف من حدوثه أو الواقع فعلاً، فما جاء في سورة الإسراء جاء التعبير به بعبارة {خشية إملاق} أي خشية حدوث فقر في المستقبل، وجاء التعقيب عليه في الآية بعبارة {نحن نرزقهم وإياكم} ففيها تقديم رزق الأولاد على رزق الآباء لأن الفقر أمر مخوف من حدوثه في المستقبل. وفي سورة الأنعام جاء التعبير بعبارة {من إملاق} أي من فقر واقع، وجاء التعقيب عليه في الآية بعبارة {نحن نرزقكم وإياهم} ففيها تقديم رزق الآباء على رزق الأولاد، لأن الفقر أمر واقع موجود، والآباء بحاجة آنية إلى الرزق، فتكامل النصان في أداء المعنى المراد، وجاء تأخير آية الأنعام إلى المرحلة المدنية على ما قيل لأن النهي عن قتل الأولاد فيها مجموع مع وصايا فيها بيانات من المناسب تأخير تنزيلها إلى العهد المدني، وضُمّت إلى سورة مكية للدلالة على أن مطلوب الله فيها بعد إكمال الدين يجب توجيهه في زمن يعادل أواسط النصف الثاني من المرحلة المكية"[٤٤].

الثالث: بيان الارتباط الموضوعي للآية بما تفرق في القرآن الكريم. مثال على ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿ □ □ □ □ □ □ چ[غافر:٣٢] حيث قال: "وأطلقت عبارة يوم التناد على يوم الدين لما يحصل فيه من تنادٍ، إذ ينادي فيه أهل الإيمان أهلَ الكفر نداءً عن بعد بين الفريقين، وينادي فيه

أهل الكفر أهل الإيمان، ومن التنادي يوم الدين:

١- قول المنافقين للمؤمنين في الحشر عند السّواق، كما جاء في سورة الحديد (٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول): ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد:١٣].

٢- وقول الله عز وجل في سورة الأعراف (٧ مصحف/٣٩ نزول): ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤].

٣- وقول الله عز وجل في سورة الأعراف أيضاً: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف:٤٨].

٤- وقول الله عز وجل في سورة الأعراف أيضاً: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠]"[٤٥].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في سورة [ق] في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا ﴾ [ق:٦] حيث قال: "وقد اقتصر النص هنا على ذكر التزيين، دون بيان الأشياء التي زينت بها السماء، ولكن جاء بيان هذا في نجوم التنزيل التي نزلت بعد سورة [ق]، ونجد في القرآن المجيد نصوصًا خمسة حول تزيين السماء للناظرين في الأرض، وهي نصوص متكاملة الدلالات فيما بينها وفق المنهج القرآني:

النص الأول: هو هذا النص الذي نتدبره في سورة [ق/٥٠ مصحف/٣٤ نزول]

النص الثاني: قول الله عز وجل في سورة [الحجر/ ٣٧ مصحف/ ٥٤ نزول]: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [١٦]

النص الثالث: قول الله عز وجل في سورة [الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول]: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [٦-١٠]

النص الرابع: قول الله عز وجل في سورة [فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول]: ﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ [١٢]

النص الخامس: قول الله عز وجل في سورة [الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول]: ﴿ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ﴾[٥]"[٤٦].

ثانيًا: تفسير القرآن بالسنة[٤٧]

في إطار الحديث عن موقف الشيخ من تفسير القرآن بالسنة يكون الكلام ضمن ما يلي:

١. منهجه في قبول الحديث.
٢. طريقته في إيراد الحديث والاستشهاد به.
٣. مجالات توظيفه للحديث خلال التفسير.

أما منهجه في قبول الحديث فيتمثل في الأمور التالية:

١) تقديم ما ورد في كتب الصحاح على غيرها، فغالباً ما يبدأ بما جاء في الصحيحين عند إيراد مجموعة من الأحاديث ثم يذكر ما جاء في السنن والمسند والموطأ والمستدرك وغيرها، وهذا واضح في بدايات السور عند إيراده ما جاء في السنة بشأنها. ومن ذلك مثلًا ما ذكره من أحاديث عند حديثه عن الدرس الرابع في سورة المرسلات، حيث أورد مجموعة أحاديث ابتدأها بحديث الإمام مسلم، ثم ثنى برواية ابن أبي حاتم وابن جرير[٤٨].

٢) اعتماد الصحيح دون غيره عند الاستشهاد، فمثلاً في سورة القصص بعد أن أورد مجموعة من الروايات في قصة موسى عليه السلام قال: "وإذ لا توجد أسانيد تصحح هذه الأقوال فلا داعي لاعتمادها"[٤٩]، وعند تفسير قوله تعالى مثلاً ﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ [الحجر:٨٧] قال: "وقد صح عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الفاتحة هي السبع المثاني وهي القرآن العظيم، فلا عدول عن هذا الذي صح عن الرسول"[٥٠].

وقال أيضًا في ﴿ ﭑ ﭒ ﭓ [ق:١١]: "وتدل ظواهر النصوص القرآنية على أنّ الله جل جلاله وعظم سلطانه ينبت أجساد الموتى في الأرض، كما ينبت النباتات التي نشاهد عودتها إلى الحياة في ظاهرات متكررات، إذ ينزل من السماء ماء صالحًا لتفجير نويات أجساد الموتى، فتأخذ في النماء، كما تنبت البقول... وهذا هو ما دلت عليه بيانات الرسول –صلى الله عليه وسلم – فوجب اعتماده" ثم أورد ثلاث روايات من صحيح البخاري ومسلم للتأكيد على هذا، ورفض أي قول يخالف هذا الذي بينه[٥١].

لكنه قد يعتمد ما هو دون الصحيح أحيانًا إذا كان متفقًا مع السياق من وجهة نظره، كما في سورة المرسلات في حديثه عن وادي "ويل"، فقد قال بعد أن ذكر حديثًا عنه: "ولئن لم يرقَ سنده عند المحدثين إلى درجة الصحيح، إلا أنّ معناه يلتقي مع دلالة البيان القرآني في هذا النص من سورة المرسلات"[٥٢].

٣) رده للأحاديث الضعيفة والموضوعة وذلك إما ببيان هذا الضعف أو بالإشارة إليها مع عدم إيرادها، مثل قوله: "وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث إذا خرجن{لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن

آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرها} [الأنعام: ١٥٨] طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض" ثم قال: "وجاءت آثار في وصف هذه الدابة، ووصف بعض أعمالها، لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج أعرضت عن ذكرها"[٥٣].

وأما طريقته في إيراد الحديث والاستشهاد به فهي إما أن يورد الحديث مع ذكر راويه من الصحابة ومصدره من كتب الحديث، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها عند تفسيره لسورة الكوثر يقول: "روى البخاري في صحيحه من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن قتاد عن أنس بن مالك قال: لما عرج النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى السماء قال: "أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر"[٥٤]"[٥٥]، وأمثلة ذلك كثيرة في تفسيره[٥٦]. وإما أن يورد الحديث مع بيان مصدره والحكم عليه دون ذكر راويه من الصحابة، كما جاء في سورة يس قال: "وعند الإمام أحمد بسند فيه مجهولان عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "البقرة سنام القرآن وذروته... ويس قلب القرآن..."[٥٧]"[٥٨]، وإما أن يقتصر على موضع الاستشهاد مع الإشارة إلى صحته، ومثاله ما ورد عند تفسير قوله تعالى ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم:١٦] قال: "وقد ثبت في الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله "وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم"[٥٩]"[٦٠]، وإما أن يشير إلى مضمون الروايات وفحواها ثم يقوم بترجيح ما يراه أولى بالاعتبار[٦١]، أو أن ينقل الأحاديث من كتب التفسير مع نقدها والحكم عليها[٦٢]، أو أن يورد الحديث مع ذكر مصدره وسنده دون ذكر درجته من الصحة والضعف[٦٣].

كما أنّه أحيانًا يأتي بالحديث مؤكدًا به ما يراه من معنى وإن لم يكن مرتبطًا بالآية، ومن ذلك تفسيره للتقويم في ﴿ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ﴾ [التين:٤] بحسن التقويم في الخلقة، فقال: "وقد فهم بعض العلماء من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة، عن النبي –صلى الله عليه وسلم – أنّه قال: "خلق الله آدم على صورته" أنّه منحه نفحات مصغرات ضئيلات من الصفات التي تُطلق عليها الأسماء التي تُطلق على صفات الله عز وجل، غير أنّ صفات الله سبحانه أزلية لا نهاية لكمالها... وبسبب إعطاء الله له من هذه الصفات كان الإنسان مخلوقًا في أحسن تقويم"[٦٤].

ومن الملاحظ على الشيخ أنه يخرج الحديث من أكثر من مصدر ويشير إلى أكثر من كتاب، وربما يقصد في ذلك تقوية الرواية والحديث الذي يورده، وأيضاً يقوم أحياناً بشرح الحديث وتبيين بعض ألفاظه وغريبه، فمثلاً عند سورة الإسراء قال: "((روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال في "بني إسرائيل والكهف ومريم" إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي)) في بني إسرائيل: أي في سورة بني إسرائيل وهي الإسراء، من العتاق الأُوَل: أي من النفائس القديمة، العتاق جمع العتيق وهو القديم النفيس..."[٦٥].

أما توظيفه للحديث فهو في بيان أسباب النزول وفضائل السور وكذلك في الاستدلال على حكم شرعي أو لبيان معنى الآية أو للعظة منها وغير ذلك.

ثالثًا: تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين

أكد الشيخ على ضرورة النظر فيما ورد عن المفسرين لأن من شأن هذا النظر أن يبصر المتدبر بجوانب قد تغيب عنه ولا تخطر على باله ولكن دون تأثر تام بل بتحريرٍ وتمييزٍ للمقبول منها أو المردود، وإتباع ذلك بانتقاء الآراء فليس علم التدبر حشراً لأقوال وآراء التأويل والإكثار من عرض ما قال الناس[٦٦].

وقد تعامل الشيخ – رحمه الله – مع هذه الأقوال بأكثر من طريقة:

١) إيراد الأقوال منسوبة إلى قائليها من الصحابة أو التابعين، نحو حديثه عن الحروف المقطعة حيث قال: "ولكن أكثر السلف رأوا أن حروف التهجي في أوائل بعض السور مما استأثر الله بعلمه وأنها سر من أسرار القرآن: روي عن أبي بكر أنه قال: في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور، وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي،وروي نحو ذلك عن الشعبي من التابعين، ولهذا نجد كثيراً من المفسرين يقولون بشأنها: الله أعلم بمراده"[٦٧].

٢) إيراد الأقوال غير منسوبة إلى أصحابها وقائليها، كما ورد في تفسير سورة العلق قال: "وبعد نزول هذه الآيات الخمس من هذه السورة فتر الوحي، واختلفت الروايات في مدة فترة الوحي بعدها، فقيل أربعون يوماً، وقيل ستة أشهر... وليس في الصحيح ما يثبت قولاً من هذه الأقوال، لكن الفترة قد حصلت"[٦٨] .

وأحياناً يورد هذه الأقوال دون نقد أو تعقيب، كما ورد عند تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ﴾ [الجن:١] قال: "وروي عن ابن مسعود أنهم من جن نصيبين"[٦٩]، أو يتعقبها بالنقد كما في المثال الثاني أعلاه، أو بالموافقة كما في قوله تعالى ﴿ ھ ھ ے ۓ ﴾ [القمر:١] حيث أورد مجموعة من الروايات التي تثبت حادثة انشقاق القمر ثم قال: "فهل بعد هذه الروايات الثابتات من أسانيد مختلفة مجال لتشكك بعض المتشككين الذين

يحاولون تأويل النص القرآني وحمله على أنه خبر عما سيحدث مستقبلاً عند قيام الساعة أو قبيلها"[٧٠]، وأمثلة ذلك كثيرة يلاحظها المتتبع للتفسير.

هذا هو موقف الشيخ – رحمه الله – من التفسير بالمأثور كما يراه في قواعده، ويلاحظ عليه دقته في البحث عن الصحيح دون الضعيف، والثابت دون غيره.

ولكنّ الذي نراه هنا هو ما قرره الدكتور فضل عباس في كتاب "التفسير أساسياته واتجاهاته" وقد بين بتوسع الملحوظات على مثل هذا التقسيم الذي سار عليه كثير من أنّ التفسير بالمأثور هو تفسير القرآن بالقرآن وبما صحّ عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبأقوال الصحابة والتابعين، وقد بيّن الإشكاليات على هذا التقسيم، وجَعْلِ هذا مقابلاً للتفسير بالرأي، ومن المعلوم أن بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين هو عبارة عن اجتهاد منهم، وكذلك بعض ما نُقل أنه من تفسير الرسول –صلى الله عليه وسلم – لم يكن كذلك، وإنما هو من اجتهاد المفسر في فهم الحديث وحمله على القرآن، وقد رجح –رحمه الله– أنّ ما يمكن اعتباره من المأثور هو: ما صحّ عن الرسول –صلى الله عليه وسلم –، وما كان ناتجاً عن اختلاف القراءات القرآنية الصحيحة، وأخيراً ما كان تفسيراً لغوياً للفظ، وللاستزادة يمكن الرجوع إلى الكتاب المذكور[٧١].

رابعًا: موقفه من أسباب النزول

لقد اهتم الشيخ بأسباب النزول وجعل ذلك ضمن القاعدة الحادية عشر من قواعد التدبر الأمثل، ولذلك عني الشيخ عناية فائقة بإيراد أسباب النزول، وذلك ضمن الإطار التالي:

– اعتماد ما صح من روايات سبب النزول وفي ذلك يقول: "فكثيراً ما يلقي سبب النزول الذي صح سنده الضوءَ على المعنى المراد من النص القرآني"[٧٢].

– العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، بشرط عدم قطع النص عن سياقه، وفي هذا يقول: "لا يصح أن تُجزَّأ كل فكرة وردت في جملة من الآية ثم يقال العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب، ما لم يكن إيرادها في الآية بوصفها قاعدة عامة"[٧٣]، ويقول: "إن على متدبر كلام الله أن يكون شديد الحذر من اقتطاع النصوص والجمل القرآنية عن سوابقها ولواحقها، حتى يتأكد تماماً من أن مجموعة الآيات التي اقتطعها لا تُكَوِّن مع غيرها وحدة متماسكة فيؤثر الاقتطاع في فهم دلالتها"[٧٤] .

– عدم اعتماد كل ما ذكره المفسرون على أنه من أسباب النزول، إلا أن يثبت بسند صحيح ولا يتنافى مع تاريخ نزول النص أو يكون فيه ما يخدش اعتباره سبباً لنزول النص الموضوع للتدبر[٧٥].

هذا مجمل موقفه من أسباب النزول كما بينه، إلا أنّه لم يلتزم بكل ما ذكره، فقد كان – رحمه الله– يتوسع في بعض الآيات من ذكر ما يتعلق بها من أسباب نزول مما ورد في كتب السير لا في كتب الحديث، ومن ذلك مثلًا ما ذكره من سبب نزول قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ...﴾ [المدثر:١١–١٥]، حيث نقل سبب النزول مما جاء في سيرة ابن هشام ومما رواه الطبري في تفسيره، والروايات في هذا متقاربة[٧٦]، وفي سورة الكوثر ذكر روايات في أسباب نزول آخر آية فيها لا ترقى لدرجة الصحيح، وبعضها غير صريح في نزول الآية، كما أنه قد يذكر أسبابًا متعددة لآية واحدة، دون إشارة منه –رحمه الله– إلى الصحيح منها، كما ذكر في سورة الكافرون والكوثر أيضًا، وهو لا يعتمد كما قال الصحيح فقط، بل إنّه ينزل من الصحيح إلى الحسن وهو كثير في تفسيره، بل إنه كان يشير إلى ذلك بقوله: "وإسناده حسن" كما هو في سورة الإخلاص، بل إنه أحيانًا ينقل قول مفسر في سبب النزول ويكون قولًا خاصًّا له كما في سورة النجم حيث أشار إلى سبب النزول بقوله: "قال ابن عطية: سبب نزولها أنّ المشركين قالوا: إنّ محمدًا يتقوّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك"[٧٧].

وأول ما يلاحظ على الشيخ إيراده ما ورد من أسباب النزول في بداية تفسيره للسور[٧٨]، وهذا إذا كان سبب النزول يشمل السورة كاملة كسورة المسد والإخلاص مثلًا، أو إذا كان السبب للآيات الأول في السورة كالعلق وعبس مثلًا، كما يذكر أسباب النزول داخل السورة إذا كانت لآيات معينة منها كما في قوله سبحانه ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى...﴾ [العلق: ٩–١٠]، فقد أورد السبب الخاص لهذه الآيات عند الحديث عنها.

وقد ينقل أحياناً عن بعض المفسرين في أسباب النزول[٧٩]، وأحياناً يذكر فحوى الروايات دون إيرادها بلفظها[٨٠]، وأحياناً لا يذكر السبب الوارد لعدم صحته دون أن يشير إليه.

فخلاصة ما يبدو من منهجه في التعامل مع سبب النزول أنه يعتمد الروايات الصحيحة والحسنة أحيانًا، وقد يذكر درجة الرواية من حيث الصحة، وقد يعرض عن ذلك خاصة إن كانت الرواية مما نقله عن المفسرين، وأحياناً يتوقف عند بعض الروايات ويقول: الله أعلم، ويؤمن بأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ويبين ذلك في تفسيره وبيانه لمعاني الآيات.

خامسًا: موقفه من المكي والمدني

اعتنى الشيخ بهذا الجانب في تفسيره، فكان يذكر ما ورد في السورة بقوله إنها مكية أو مدنية كلها أو بعضها، ويبدو ذلك واضحاً عند بداية كل سورة وفي صفحة مستقلة مع اسمها، مثلا: (سورة ق ٥٠ مصحف ٣٤ نزول مكية كلها إلا الآية (٣٨) منها فمدنية) وهكذا، وقد يرجح أحياناً كونها مكية أو مدنية مثل: (سورة الزمر ٣٩ مصحف ٥٩ نزول: وهي سورة مكية كلها على الأرجح، وقيل إلا الآيات ٥٣،٥٢/٥٤)، ويبني الشيخ ترجيحه إما على الروايات الثابتة التي بينت ترتيب النزول، أو على قوة الاستنباط.

ويقوم الشيخ رحمه الله أيضاً ببيان الحكمة من وجود الآيات المدنية في السور المكية أو العكس، ويذكر أن عدد السور التي ضُمت إليها آيات مدنية (٣٣) سورة، وأن السور المدنية التي ضُمت إليها آيات مكية (٣) فقط[٨١].

وبين رحمه الله أن الحكمة من هذا الأمر هي مراعاة اقتضاءين اثنين:

الأول: اقتضاء فكري موضوعي، من حيث ملاءمة موضوع هذه الآيات المدنية مثلاً لموضوع السورة المكية التي وضعت فيها.

الثاني: اقتضاء تربوي قائم على سنة التدرج ومراعاة حال المخاطبين في التعليم والتربية، مع ملاحظة أن الاقتضاء الفكري لا يمنع من تأخير البيان والتبليغ مراعاة للاقتضاء التربوي الذي ينبغي أن يقوم على أسلوب التدرج الحكيم.[٨٢]

هذا مجمل ما نص عليه حول المكي والمدني، لكنّ هذا مما يؤخذ على الشيخ، فإنّه لم يثبت بالرواية ولا بالعقل وقوع آيات مكية التنزيل في سور مدنية، وقد نص عليه ربمّا لمقابلة وجود المدني في المكي، وهو أمر قد وقع ودلّ عليه الدليل، ولا معارض له عقلًا بخلاف الأول الذي يستحيل عقلًا؛ لأنّه لا يُعقل أنْ تنزل الآية وتبقى معلقة إلى أن تأتي السورة المدنية فتجد لها مكانًا فيها، فهذا يخالف منهج الرسول –صلى الله عليه وسلم – في إرشاده لكتبة الوحي في وضع الآيات في مكانها.

وأما الحكمتان اللتان ذكرهما فتعلقهما بتنزيل آيات مدنية ووضعها في سور مكية دون العكس، فما هي الحكم إذن من وضع آيات مكية في سور مدنية؟

وقد قام أستاذنا الدكتور فضل عباس بتمحيص كثيرٍ مما ادعي أنّه من باب المدني في السور المكية، وأما المكي في السور المدنية فأثبت عدم صحته، وذلك في كتابه "إتقان البرهان في علوم القرآن" حيث يقول: "والذي يظهر لي أنه (أي وجود آيات مكية في سور مدنية) شيء لا وجود له، فلا يُعقل أن تنزل الآية في مكة المكرمة، وأن تبقى سنين طويلة لا مكان لها إلى أن تنزل السورة في المدينة المنورة، ثم توضع تلك الآيات، أو الآية، أو الآيتان في تلك السورة... وننبه هنا على أن ما استثنوه في السور المكية من آيات مدنية يظهر فيه الغلو والتكلف في كثير من الأحيان، وقلّ أن نجد سورة من السور المكية، إلا وقد استثنوا منها آيات قالوا: إنها مدنية، وفي أغلب الأحوال يكون هذا الاستثناء لأسباب واهية، إما رواية ضعيفة، وإما ذكر كلمة وُهِم أنها ليست مما ينزل في مكة، وإما حمل بعض الكلمات على تفسير معين"[٨٣].

فعلى سبيل المثال استثنى الشيخ حبنكة من سورة الأعراف المكية الآيات (١٦٣–١٧٠)، وقال: "وهي آيات مدنية التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة الأعراف المكية لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيلية في العهد المدني حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود"[٨٤].

يقول الدكتور فضل عباس عن هذا الاستثناء: "وهو استثناء لا دليل عليه، وما يُقال إن قوله سبحانه ﴿ ٥ ٦ ٧ ٨ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] حديث عن اليهود، وأن أخبارهم كانت في مكة؟ يجاب عنه بأن الآية متصلة اتصالًا تاما بما قبلها، من حديث عن بني إسرائيل واتخاذهم العجل، وغير ذلك من معاصيهم"[٨٥].

والأمثلة على مثل هذا كثيرة تلاحظ في كتاب الدكتور فضل عباس في تمحيصه لما قيل إنه مدني في السور المكية، والعكس كذلك إلا أنه لما لم يكن في تفسير الشيخ حبنكة شيء من السور المدنية كون المنية عاجلته ولما يكمل تفسيره، لم يكن من المقدور مقارنة قوله ومناقشته.

سادسًا: موقفه من القراءات

لقد أكد الشيخ عبد الرحمن حبنكة على ضرورة معرفة القراءات وتوظيفها في تدبر كتاب الله وتفسيره وبيان معانيه، وجعل ذلك القاعدة الأربعين من قواعد التدبر الأمثل، وقد قال: "إن على متدبر كتاب الله أن يبحث عن المعاني، وعن الصور البيانية الموصولة بإعجاز القرآن التي تدل عليها وجوه القراءات المختلفة، التي لا يظهر بوضوح أن الغرض من الاختلاف فيها مجرد التهوين والتسهيل على ألسنة الناطقين بالعربية إبّان تنزيل القرآن"[٨٦].

وقد بين – رحمه الله – مصادره من كتب القراءات (وقد ذكرتها سابقاً) وهي: كتاب البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضي، والمهذب في القراءات العشر وتوجيهها للدكتور محمد سالم محيسن، كما أنه استعان ببعض التفاسير في توجيه القراءات كتفسير الكشاف مثلا[٨٧].

وقد كان – رحمه الله– يذكر في بداية تفسير كل سورة نص السورة كاملًا في الجزء العلوي من الصفحة، وفي الجزء

السفلي كان يذكر القراءات المتواترة الواردة في النص العلوي.

ثم كان يذكر خلال التفسير مقاطع الآيات أو نص الآية ثم يورد القراءات مرة أخرى، ويعتمد في ذلك على القراءات العشر المتواترة فقط مع بيان كل قارئ في كل قراءة إما تصريحاً باسمه أو إشارة إلى بقية القراء، ثم يقوم بتوجيه القراءات وبيان ما فيها.

مثال على ذلك:

١) ما جاء في سورة (يس) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس:٦٩-٧٠] يذكر ما فيه من قراءات فيقول: "قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (لتنذر) خطاباً للرسول الذي أنزل الله عز وجل عليه القرآن، وفي العبارة التفات إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقرأ باقي القراء العشرة (لينذر) حديثاً عن الرسول بضمير الغائب، أو حديثاً عن القرآن، إذ الرسول منذر، والقرآن منذرٌ ببيانات الإنذار التي فيه، ففي القراءتين تكامل في الأداء البياني، وتكامل فكري في أداء المعنى المراد"[٨٨].

٢) ما جاء في سورة الفرقان من قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الفرقان:١٨] قال: "قرأ أبو جعفر (أن نُتَّخَذَ من دونك) بالفعل المبني لما لم يسمّ فاعله، وقرأ باقي القراء العشرة (أن نَتَّخِذَ من دونك) بالفعل المبني للمعلوم. وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم ينزهون الله عن أن يتخذوا من دونه أولياء لهم، وينزهون الله عن رضاهم بأن يتخذهم أحد أولياء من دونه"[٨٩].

وغيرها من الأمثلة الكثيرة التي يستطيع القارئ الرجوع إليها في كل موضع فيه قراءة.

وكان – رحمه الله– يذكر توجيه القراءات في بداية السورة عند عرضه للنص وفرش القراءات، خاصة ما يتعلق منها باللغات المختلفة، حتى لا يذكره عند التفسير، وأحيانًا كان يوجه القراءات التي لها أثر في المعنى في بداية السورة أيضًا، وكان أحيانًا يعيد ذكر توجيهها مرة أخرى عند التفسير.

والأمثلة على هذه الحالة المتعددة كثيرة، سأذكر مثالًا لكل صورة منها، أما ما يتعلق باللغات فمن ذلك توجيهه لكلمة "مطلع" في سورة القدر حيث قال عند عرض نص السورة والقراءات التي يحويها: "قرأ الكسائي وخلف "مطْلِعِ" بكسر اللام. وقرأها باقي القراء العشرة "مطْلَع" بفتح اللام. والقراءتان وجهان عربيان. أما "مطلَع" بفتح اللام فهو جارٍ على القياس، لأنّ مضارع فعلِه مضمومُ العين "طَلَعَ يطْلُعُ". وأما "مطلِع" بكسر اللام فقد سُمع في نطق العرب على خلاف القياس، فهو لغة عربية سماعية"[٩٠].

ومن الأمثلة على توجيه قراءات لها أثر في المعنى مع عدم تكرير ذلك خلال تفسير السورة توجيهه لكلمة "لترونّ" في سورة التكاثر حيث قال: "قرأ ابن عامر والكسائي "لَتُرَوُنَّ" بضم التاء، وقرأ باقي القراء العشرة "لَتَرَوُنّ" بفتح التاء. والقراءتان متكاملتان في المعنى، إذ هم يُرَوْنها فيَرونها"[٩١].

ومن الأمثلة على التوجيه في البداية وإعادة ذكره خلال التفسير ما ذكره في توجيه كلمة "جمع" وكلمة "يحسب" في سورة الهمزة، والأولى مما له أثر في المعنى، والثانية من لغات العرب، وقد ذكر توجيههما مرتين[٩٢].

وأما موقفه من القراءات الشاذة؛ فمن خلال التتبع لموقف الشيخ من القراءات تبين أنه لا يعترف بالقراءات الشاذة ولا يلتفت إليها ولم أجد في كتابه أي ذكر لها، وهذا مما يسجل للشيخ لا عليه رحمه الله.

سابعًا: موقفه من الإسرائيليات

لا شك أن للإسرائيليات أثراً وخطورة على عقائد المسلمين لاحتوائها على كثير من الخرافات والأباطيل، فهي تنفث في العقائد حين ذكرها ما لا يليق بذات الله وصفاته، وكثيراً ما تسيء إلى الأنبياء والمرسلين وتضع من مكانتهم، ثم إنها تفقد الثقة ببعض الصحابة والتابعين الذين نسبت إليهم رواية كثير منها، وهي كذلك تصرف الناس عن الغرض الذي أنزل القرآن لتحقيقه[٩٣].

وقد تفاوت المفسرون في نقلهم الإسرائيليات بين المكثر والمقل والناقد والمتوقف، أما موقف الشيخ عبد الرحمن حبنكة فقد جاء مضطرباً غير واضح في تعامله مع الإسرائيليات على الغالب[٩٤]، وله في ذلك نواح عدة:

١) بعض المواضع والآيات التي أفاض فيها قسم من المفسرين بالروايات والتفاصيل الإسرائيلية سواء عقبوا عليها وبينوا أعوارها أم لا، تكاد لا تجد هذا في تفسيره كما في قصة سفينة نوح وما يتعلق بها، فقد أورد فقط أن ابن نوح يام وأنه رابع أبنائه من زوجة اسمها واعلة، كانت كافرة مع كفار قومها[٩٥].

٢) قسم لم يذكر فيه الإسرائيليات وإنما أشار إلى وجودها وورودها عند المفسرين، كما في سورة سبأ عند قصة موت سليمان فقال: "جاء في قصة موت سليمان عليه السلام حكايات ليس لها أسانيد تجعلها ذات قيمة خبرية، فمن الخير عدم ذكر شيء منها"[٩٦] .

٣) قسم نسب فيه الكلام إلى جملة المؤرخين المفسرين كما في سورة (صۤ) عند حديثه عن قصة أيوب فقال: "وذكر

المؤرخون والمفسرون أن أيوب كان كثير المال... الخ"[٩٧].

٤) قسم بين أنه ليس له سند عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم يورده، ومن ذلك ما جاء في تفسير سورة القصص قال: "جاء عند المفسرين أقوال ليس لها سند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما يلي: سار موسى من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر حتى لصق بطنه بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه" وأورد بعضاً من هذه الروايات ثم قال: "وإذ لا توجد أسانيد صحيحة لهذه الأقوال فلا داعي لاعتمادها"[٩٨].

٥) وأحياناً كان يذكر الرواية الإسرائيلية ثم يحاول أن يأخذ منها بعض الأمور، أو أن يصححها، كما جاء في سورة القصص عند الحديث عن الشيخ أبو المرأتين من مدين، إذ قام بذكر أقوال المفسرين وما ورد في الكتاب المقدس (التوراة) ثم قال: "والذي أراه أن لا داعي لاعتماد قول بعينه، وعلى الرغم مما عند أهل الكتاب من أغاليط كثيرة فلا مانع عقلاً من أن يكون هذا الرجل (رعوئيل) وأن لفظ (ثيرون) لقب شرف أطلق عليه وأنه كان كاهنَ (مَدْيان) أي كان ذا رياسة دينية في قومه على ملة الرسول شعيب عليه السلام"[٩٩]، وكما جاء في سورة (صٓ) عن قصة داود والخصمين، فبعد أن ذكر الروايات الإسرائيلية كيف أنها تكلمت عن أنه أحب زوجة أحد قادته الكبار وفعل الفاحشة معها وأراد ضمها إلى نسائه التسع وتسعين، قال: "وبالتجريد من الزوائد الإسرائيلية يمكن أن تُصور القصة الإسرائيلية على الوجه التالي: رأى داود عليه السلام عرضاً ومن دون قصد منه زوجة (أوريا الحِثّي) أحد قواده الكبار، وكانت امرأة حسناء فاستحسنها وتمناها، وخطرت له خواطر من الأماني، وربما سأله أن يتنازل له عنها، فلما سقط (أوريا الحثي) قتيلاً في المعارك الجهادية وجد في نفسه راحة لما جرى، ثم خطب هذه المرأة التي استحسنها ضمن أحكام الزواج الشرعي وضمها إلى نسائه بزواج شرعي فولدت له سليمان عليه السلام"[١٠٠]. وهذا كلام لا يجوز وكنا نربأ بالشيخ أن يذكر مثل ذلك.

٦) قسم كان يرجع فيه إلى الكتاب المقدس وينقل عنه ما جاء فيه عن الموضع المقصود، ولعله أراد بهذا تنزيه السلف رضوان الله عليهم من نسبة شيء من ذلك إليهم وأن مصدر هذا الكلام أهل الكتاب وكتبهم، وأمثلة هذا كثيرة في كتابه، منها مثلاً ما جاء في سورة يوسف حيث قال: "جاء في الإصحاح (٣٧) من سفر التكوين عند الإسرائيليين أن الذي نهاهم عن قتله واقترح عليهم إلقاءه في الجب هو أخوه الأكبر رأوبين"[١٠١].

وهذا الموقف الذي تبناه في الإسرائيليات مما يؤخذ عليه، إذ إنه يجب أن يخلو التفسير من هذه الهرطقات والأباطيل التي لا سند ولا أصل لها إلا بنو إسرائيل، بل يجب على المفسر إظهار ما في القصة القرآنية من وجوه العبر التي أرادها الله عز وجل، فكان من الأفضل أن لا يرويها من الأصل، لا أن يروي بعضها ثم يبين أن لا سند له، أو أن يحاول تصحيح ما فيها من أخطاء، أو أن يأخذ منه بعضه، إذ إنه:

أولاً: لا فائدة ترجى من ورائه.

ثانياً: يضيف إلى القرآن ما ليس منه.

ثالثا: يجعل كثيراً من العامة يتناقلون مثل هذه الروايات خاصة تلك التي لم يَرُدَّها ولم يبين أنه لا أصل لها.

وإن كان في منهجه لا يسلم لكثير منها بل يرد كثيراً منها، وذلك واضح في عدم إيراده الكثير مما أورده من سبقه من المفسرين، ويبين تحريف أهل الكتاب لما جاء عندهم، وينبه على كثير مما ورد في أقوال من سبقه، إلا أنه كان من الأفضل عدم التطرق لها بتاتاً – والله أعلم –.

المطلب الثالث: منهجه في التعامل مع القضايا اللغوية

لقد ظهر من خلال هذا التفسير مدة عناية الشيخ الميداني رحمه الله باللغة بجميع مسائلها، من اهتمام بدلالة الألفاظ وبالقضايا الصرفية والنحوية والبلاغية، وهذا ما سنلقي الضوء عليه بإذن الله.

المسألة الأولى: ما يتعلق بدلالات الألفاظ والقضايا الصرفية

حرص الشيخ في تفسيره على بيان دلالات الألفاظ التي تواجهه في التفسير مع بيان اشتقاقها، وقد تجلى هذا في مجموعة أمور برزت فيما يتعلق بعنايته بالألفاظ:

١– بيان معنى اللفظ وأصوله واشتقاقه من معاجم اللغة كلسان العرب وغيره، ومن ثم توجيه المراد به في الآية استرشاداً بهذا المعنى اللغوي، وأمثلته كثيرة متفرقة في جميع أنحاء كتابه مثل ما جاء في قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] يقول رحمه الله عن ناضرة: "أي حسنة غضة ناعمة، مؤنث "ناضر" اسم فاعل من فعل "نَضَرَ ينضُرُ، ونَضِرَ يَنضَرَ، ونَضُرَ يَنضُرُ" نضراً ونَضْرَةً ونضارة ونُضوراً، أي: حَسُنَ، فهو ذو بريق تظهر عليه علامات السرور والنِّعمة والبِشر، فهو ناضرٌ ونضيرٌ ونَضِرٌ"[١٠٢].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في قوله تعالى ﴿ □ □ □﴾ [عبس:٣٣] حيث قال: "الصخ في اللغة: الضرب بالحديد على الحديد، أو الضرب بالعصا الصلبة على شيء مصمت. وكل صوت صادر من أثر وقع صخرة على صخرة، فهو في اللغة

صخٌّ. تقول: ضربت الصخرة بحجر فسمعت لها صخة. فلفظ "الصاخة" الذي سميت به القيامة: إمَّا اسم فاعل من صخ يصخّ صخًّا، فهو صاخّ وهي صاخّة، وإمّا مصدر بمعنى الصخ"(١٠٣).

وفي سورة المرسلات عن كلمة "ظليل" قال: "جاء في كتب اللغة: مكان ظليل أي: ذو ظل، وقيل: الدائم الظل، وصيغة "ظليل" على وزن فعيل هي من صيغ المبالغة، ونفي كونه ظليلًا يدل على نفي ما تقع عليه المبالغة، وهي تقع على الدوام، وتقع على ما هو المقصود بالظل، وهو ستر الحرارة وحجبها"، وفي كلمة "شرر" قال: "اسم جنس جَمْعِيٌّ، واحدته شررة"(١٠٤).

٢- بيان الفرق بين الألفاظ المتقاربة في المعنى أو ما قيل عنها من أنها مترادفة، كما في تفريقه بين السعي والمشي عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩] حيث قال: "ويلاحظ أن الله عز وجل استعمل مادة (السعي) في القرآن لعمل الآخرة، وأما العمل المباح لكسب الرزق ومصالح الحياة الدنيا فقد استعمل فيه مادة (المشي) فقال تعالى في سورة (الملك/٦٧ مصحف/ ٧٧نزول) ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى في سورة (الإسراء /١٧ مصحف/٥٠ نزول) ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء:١٩] . المشي: هو الانتقال الهادئ برفق للكدح والحمل وغير ذلك، السعي: هو الانتقال بمهمة ونشاط وقوة في الكدح والعمل، والمراد الحالة النفسية ولو كان المطلوب السكينة والرفق، فالسعي في اللغة حركته فوق حركة المشي ودون حركة العدو والركض"(١٠٥).

وقال في ﴿ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ ﴾ [عبس: ٣٢]: "المتاع كل شيء ينتفع به مدة ثم يأتيه الفناء، وهو يشمل كل ما فيه منفعة أو لذة من مأكل أو مشرب أو ملبس أو منكح، أو أداة لشيء من ذلك، وقد جاء في القرآن تخصيص لفظة (متاع) ومشتقاتها بالأشياء ذوات المنافع الزائلة في الدنيا، أما ما يصيبه المتقون في الجنة فقد جاءت تسميته في القرآن نعيماً، للتنبيه على أن النعيم له صفة الدوام وأنه مقيم"(١٠٦).

٣- حمل اللفظ على معانيه المتعددة ما كان السياق يحتمل ذلك، ولم يكن بينها تضاد ولا تنافر، وهذا الأمر تمثله القاعدة الثامنة والعشرون، وقد أشار الشيخ إلى أن هذا الأمر هو من الفنون البلاغية القائمة على الإيجاز، وفيه عطاء فكري وإمتاع للأذكياء، وفيه استغناء عن تكرار اللفظ للدلالة على معانٍ مختلفة مرادة(١٠٧)، وقد طبق الشيخ هذه القاعدة في أكثر من موضع ومنها على سبيل التمثيل ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷺ[البروج:٨] قال: "فعل (نقِمَ ينقِمُ) مثل ضرب يضرب، و(نقَمَ ينقَمُ) مثل تعب يتعب، يأتي بمعنى عاب وذم وبمعنى كره أشد الكراهية وأبغض، ويأتي بمعنى عاقب، وتعدية الفعل على هذه المعاني الثلاثة تأتي بحرف الجر (من)"(١٠٨).

وقال في ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ [ق:٥]: "[مريج] كلمة تدور حول المعاني التالية: "ملتوٍ أعوج- ملتبس مختلط- مختلف- مضطرب- قلق- فاسد" ولدى متابعة مذاهب الكافرين بالحق الرباني، والتفكر في عقائدهم ومفهوماتهم، حول الوجود والحياة والنشأة والمصير، مجد أنّ كل معاني كلمة "مريج" تنطبق عليهم بوجه عام، على التوزيع، وبعضها ينطبق عليهم جميعًا"(١٠٩).

٤- يهتم بالأوزان الصرفية، وما يترتب عليها من معانٍ، ومن ذلك ما أورده عند الحديث عن قوله سبحانه ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤] فقال: "حفيظ على وزن فعيل، وهذا الوزن يأتي بمعنى اسم الفاعل ولمعنى اسم المفعول، مع الدلالة على الكثرة والمبالغة فيهما. فعلى المعنى الأول هو حافظ غاية الحفظ لكل معلوم، لا يضل عنه ولا يتغير ولا يتبدل فيه معلوم، وعلى المعنى الثاني: هو محفوظ غاية المحفوظية، يحفظ الله له من أن يؤثر عليه أي شيء في كل الوجود من دون الله عز وجل.

وجاء استخدام لفظ "حفيظ" بالمعنيين، وهذا من الإيجاز القرآني البديع"(١١٠).

وقال في ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق:٨]: "منيب اسم فاعل من "أناب ينيب"... واسم الفاعل يشبه الفعل المضارع في المعنى، يدل على الحال والاستقبال والتكرار"(١١١).

المسألة الثانية: ما يتعلق بالقضايا النحوية

كان الشيخ – رحمه الله – يعتني بالجانب النحوي، حيث إنه كان يقوم ببيان أوجه الإعراب في الموضع قيد التدبر ثم بيان ما يترتب عليها من المعاني، وربما يتبع ذلك بمناقشات أدلة الأعاريب وبيانها حين اختلافها، وليس الأمر في هذا عند كل اختلاف مذكور في الإعراب، فإنه قد يتخذ موقفاً منذ البداية في إعراب لفظ أو تركيب دون الإشارة إلى اختلاف العلماء فيه، ويقوم أحياناً بمناقشة النحويين والرد عليهم، ويعتني كثيراً بما يتعلق بحروف المعاني. أمثلة على ذلك:

١- عند قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس:٦] قال رحمه الله: "ترددت في تفسيرها أقوال المفسرين بين إثبات إنذار آبائهم ونفيه، وعلى النفي فلفظ (ما) حرف نفي، وعلى الإثبات يمكن أن يكون لفظ (ما) اسماً

موصولاً بمعنى الذي، ويمكن أن يكون حرفاً مصدرياً يؤول ما بعده بمصدر"(١١٢)، ثم استكمل الشيخ المعاني على النفي والإثبات، وبين أدلة كل من المثبتين والنافين.

٢- عند قوله تعالى: ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [يوسف:١٣] قال: "لام الابتداء في (ليحزنني) دخلت على فعل مضارع يراد به المستقبل على خلاف ما يرى النحاة من أنها تجعل المضارع خالصاً للحال، فيظهر أنها كذلك في الغالب"(١١٣) .

٣- عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ﴾ [يس:٣٤] قال: "ولفظ (من) في عبارة (من نخيل وأعناب) لبيان الجنس، وحرف (من) في عبارة (من العيون) للتبعيض، لأن بعض العيون تتفجر في البساتين أو تجري أنهارها فيها، وبعض العيون تتفجر في مواطن أخرى لا تكون فيها بساتين وجنات"(١١٤).

٤- عند قوله تعالى ﴿ ٿ ٿ ٹ ٹٹ ٹ ڈ ڈ ﴾ [ق:٣] قال: "وقد طوى النص من مقالتهم جواب "إذا" الشرطية، إذ دلت عله مقالتهم ﴿ٹ ڈ ڈ﴾. وباستطاعتنا أن نبرز جواب "إذا" المطوي الذي يستدعيه الذهن بأدنى تأمل فنقول: أإذا متنا وكنا ترابًا نُرجَع إلى الحياة مرةً أخرى... ذلك رجع بعيد"(١١٥).

المسألة الثالثة: ما يتعلق بالقضايا البلاغية

اعتنى الشيخ بالبلاغة وعلومها وقد ظهر ذلك جلياً في تفسيره من خلال اعتنائه بعلوم البلاغة المختلفة كعلم المعاني والبيان والبديع، والأمثلة على ذلك كثيرة جلية منها:

١- **ما يتعلق بعلم المعاني:** مثلاً في تفسيره لسورة الفرقان يقول في النقطة التاسعة من ملحقات البلاغيات: "في هذه السورة من أمثلة القصر ما يلي:

أ) ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ ے ۓ ۓ ﮭ ﮬ ﮮ ﮯ ﴾ [آية٨]..

ب) ما جاء في قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ورداً على اعتراض الذين كفروا: ﴿ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [آية ٢٠]...

ج) ما جاء في قول الله عز وجل خطاباً لرسوله بشأن اعتراض الذين كفروا على تنزيل القرآن منجماً: ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [آية٣٣]...

د) ما جاء في قول الله عز وجل خطاباً لرسوله بشأن الكافرين به: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ [آية٤١]

هـ) ما جاء في قول الله عز وجل خطاباً لرسوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [آية٥٦]"(١١٦).

ومن ذلك أيضاً ما أورده عند قوله تعالى: ﴿ ٿ ٿ ٹ ٹ ﴾ [الفاتحة:٥] حيث قال: "[إياك] ضمير منفصل منصوب على أنه مفعول به لفعل [نعبد] متقدمٌ عليه لإفادة الحصر والتخصيص، بالدلالة على إفراد الله عز وجل بالعبادة، والتبرؤ من كل شرك فيها.

فمن أغراض تقديم المعمول على عامله إرادة التخصيص والحصر كما هو مقرر لدى علماء البلاغة"(١١٧).

وفي قوله ﴿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [النمل:٧٤] قال: "وجاء تأكيد هذا الخبر عن شمول علم الله عز وجل بالمؤكدات التاليات: "إنّ" و"الجملة الاسمية" و"اللام المزحلقة للخبر" كما يقول البلاغيون"(١١٨).

٢- **ما يتعلق بعلم البيان:** ومن الأمثلة على ذلك:

عند قوله تعالى ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣] قال: "هذا التشبيه ذكر فيه المشبه والمشبَّه به وأداة التشبيه، ولم يذكر فيه وجه الشبه، فهو من التشبيه المرسل، لذكر أداة التشبيه فيه، ومن التشبيه المجمل لعدم ذكر وجه الشبه، فهو تشبيه مرسل مجمل"(١١٩).

ومن ذلك أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر:١٤] حيث قال: "وهذا التعبير القرآني كناية عن مراقبة الله تعالى للمجرمين دواماً، في كل الأزمان حتى أقصرِ وَحَداتِها وأصغرِها، مع شمول علمه لكل حركة وسكنة من حركاتهم وسكناتهم، وبما أنّه حكيمٌ عدْلٌ منتقمٌ جبّارٌ، وله سنةٌ في عباده ثابتةٌ لا تبديل لها ولا تحويل فيها... وفي هذا إلماحٌ إلى إنذار ووعيدٍ بعذابٍ وإهلاكٍ لكل المجرمين، متى وصلت حالتهم إلى مثل الحالة التي وصل إليها المعذَّبون المهلَكون الغابرون"(١٢٠).

كما أنّه يعتني بالتصوير، ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات:٣٢-٣٣] يقول: "بهذا تمت اللقطة السريعة الأولى من تصوير موقع المكذبين في قاع وادي "ويل" من وديان جهنم يوم الدين"(١٢١)، وقال أيضًا: "وفيما سبق كان التدبر متعلقًا باللقطة الأولى من الصورة التي وصف الله عز وجل بها موقع المكذبين في قاع وادي "ويل". أما اللقطة الثانية فهي وصف الظل الذي يُكَلّفون الانطلاق إليه بأنه ذو ثلاث شعب"(١٢٢).

وفي قوله تعالى ﴿ □ ﴾ [عبس:٣٨-٤٢] يقول: "بعد بيان لقطة من مشاهد يوم البعث، وهي لقطة يبرز فيها فرار كل إنسان من أقاربه وأحبابه، حتى أحب الناس إليه في الدنيا، فكيف يكون حاله مع سائر الناس؟ يعرض البيان في السورة لقطتين: لقطة تظهر فيها أمارات السعادة والفرحة وأخرى تظهر فيها أمارات التعاسة والشقاء. فاللقطة التصويرية الأولى: جاء فيها عرض وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة... واللقطة

التصويرية الثانية: جاء فيها عرض وجوه أخرى عليها غبرة ترهقها قترة..."[١٢٣].

ويقول في ﴿ ٹ ٹ ٹ چ [البروج:٥]: "وصفت نار هذا الأخدود بأنها ذات الوقود، لتصوير مشهد المدد من الوقود، الذي جمعه أو يجلبُه أصحاب الأخدود، ويجعلونه قريبًا منهم، فهم يُمِدُّونها بالوقود واللازم لها، كلما تقاصرت ألسنة لهبها. وفي هذا التصوير إبراز لشناعة عملهم وفظاعته..."[١٢٤] ثم يقول في ﴿ٹ ٹ ٹ ٹچ [البروج:٦]: "وفي هذا البيان متابعة لتصوير شناعة ما قاموا به، وتصوير فظاعته، للتنبيه على حالتهم النفسية البالغة غاية الإجرام واللؤم والخسة والكلاحة الجهنمية"[١٢٥].

٣- **ما يتعلق بعلم البديع:** كما جاء في سورة فاطر مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر:١٢] حيث قال: "في هذا البيان من البدائع المعنوية لف مجمل ونشر مفصل، فاللف المجمل في عبارة ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ﴾ فقد ذكر فيها البحران على طريقة اللف المجمل، والنشر جاء في عبارة ﴿ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾، ويحسن مثل هذا الإجراء البديع لما فيه من مساعدة للفكر على استيعاب الأقسام بعد ذكر الجامع بينها، وتحديد حدود الكليات والجزئيات"[١٢٦].

ومن ذلك أيضاً عند قوله تعالى ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء:٦] حيث قال: "في هذه الآية حذفٌ من الأوائل للدلالة على الأواخر وبالعكس، وهو ما يسمى عند البلاغيين (الاحتباك) والتقدير: "فقد كذبوا واستهزؤوا فسيأتيهم تحقيق أنباء ما كانوا به يكذبون ويستهزئون"، وبهذا التقدير يظهر للمتدبر حذف مضاف قبل (أنباء) أيضاً"[١٢٧].

المطلب الرابع: منهجه في التعامل مع القضايا العقلية

كان الشيخ – رحمه الله – يهتم بإعمال عقله في التفسير، سواء في مناقشاته لغيره – كما مر – أو في اهتمامه ببعض القضايا العقلية، نوافقه على أكثرها لكن نأخذ عليه إحدى قضاياها، وسأذكر في هذا المطلب أهم القضايا العقلية التي برزت في تفسيره.

المسألة الأولى: المناسبات

ألقى الشيخ – رحمه الله – على مسألة المناسبات عناية خاصة باعتبارها عاملاً مهماً من عوامل فهم السورة والوقوف على المراد بها، ولا شك أن الدافع له إلى ذلك هو إظهار أهمية ترتيب النزول ودوره في معرفة التكامل فيما هدفت إليه السور المتجاورة في ترتيب النزول، قال مثلاً عند تفسير سورة الشرح: "تكاد تكون سورة الشرح تتمة لسورة الضحى أو درساً من دروسها، بيد أنها سورة منفصلة، نزلت بعد الضحى خطاباً لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، والأسلوب البياني والتربوي والتكليفي فيها مشابه لأسلوبها، مع فارق بياني استدعى فصلها"[١٢٨].

ومن الملاحظ أن هذا الأمر يظهر تماماً عند السور المتجاورة في ترتيب المصحف مما تقارب تاريخ نزولها، أما التي اختلف ترتيبها حسب النزول عن ترتيبها في المصحف فإن كلامه في المناسبة بينها لا يظهر بشكل واضح، إلا ضمن المناسبة العامة بين سور القرآن المتعلقة ببيان التدرج في التشريع والبناء الفكري والتربوي، ومعالجة مواقف المشركين، فتراه يشير مثلاً عند بداية كثير من السور إلى متابعة كل سورة لما أوردته السورة السابقة لها في النزول من قضايا فكرية أو اعتقادية، وهذا كله بسبب اعتماده ترتيب النزول[١٢٩].

واعتناؤه بالمناسبات أخذ جانبًا آخر غير ارتباط السور ببعضها، فهو يعتني أيضًا بإبراز المناسبات بين دروس السورة المختلفة، فمثلًا يقول في بداية الدرس الثاني من سورة الأعلى تحت عنوان "ارتباط هذا الدرس بالدرس الأول": "تضمن الدرس الأول من السورة توجيه الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم – أن يشرح للناس القضايا التي اشتمل عليها، والمتعلقة بالله جل جلاله، وتنزيهه عما لا يليق به، وبيان أدلة ربوبيته في كونه.

وقد سبق أن علِمَ صلوات الله عليه فيما أنزل الله عليه من القرآن أنّ هذه القضايا المتعلقة بالله إنما هي فقرات أولى من أُسس العقيدة في الإسلام، ولا بُدّ أن تتبعها بيانات أخرى تتعلق بسائر فقرات أركان الإيمان، وبيانات تتعلق بأنواع السلوك الديني في الحياة، وأنّ عليه أن يتلقى هذه البيانات بتتابع، وهو في حالة استعداد نفسي كامل لتلقيها وحفظها، وحمل مسؤولية تبليغها والتذكير بها... وإذ يعلم الرسول –صلى الله عليه وسلم – من نفسه أنه بشر، وأنه معرض لأن ينسى بعض ما ينزل الله عليه من القرآن، فلا بد أن يتخوف من هذا الأمر العظيم، وهو يحمل رسالة ربه الجليلة، وأن يحمل همّ حفظ كل كلمة وكل حرف... لهذا كان من الحكمة أن يطمئن الله عز وجل رسوله بشأن الأمرين المهمين لنفسه وقلبه:

الأمر الأول: تخوفه من أن ينسى بعض ما ينزل الله عليه من كتابه المجيد.

الأمر الثاني: تخوفه من أن لا يستطيع تأدية وظائف رسالته التي أرسله الله بها على أتم وجه وأكمله.

فأبان الله له أنه سيمده بعطاء من لدنه يجعله لا ينسى...[١٣٠] .

ويقول في الدرس الثالث من سورة يس: "يبدأ هذا الدرس الثالث من دروس السورة بآية صالحة لأن تكون بداية له، وصالحة أيضًا لأن تكون نهاية وختامًا للدرس الثاني، وهذا من لطائف سلاسل الربط بين الدروس في السورة القرآنية"[١٣١]. والأمثلة على هذا الجانب كثيرة مطردة في كتابه.

فخلاصة منهجه في المناسبات أنه سار فيه بطريقين؛ أحدهما: بيان المناسبات بين السور، وثانيهما: بيان المناسبات بين دروس السورة.

المسألة الثانية: التفسير الموضوعي

وقد ظهر اعتناؤه بهذا الجانب على أكثر من اتجاه، الأول هو عند حديثه عن السورة ككل ورسم صورة لها تكون محور السورة ومحورها، ففي كل سورة يعطي لمحة موجزة عن السورة، فيحدد موضوعها أو موضوعاتها التي تحويها والارتباط بينها، وبيان الأساليب التي اتبعتها السورة في عرض موضوعها أو موضوعاتها، ومن ثم تقسيم السورة إلى دروس تعطي صورة مجملة عما تتضمنه من أفكار.

أما الثاني فهو المتمثل في تحديد موضوعات معينة وجمع الآيات القرآنية التي تشترك في بيانها والحديث عنها، ومن ثم دراستها وفق المنهجية الموضوعية فقد بدا ذلك واضحاً في منهج الشيخ. ومن ذلك ما فعله في الملحق الثاني من سورة النجم بعنوان: "حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة" فقد أورد المعالجات وفق ترتيب النزول في القرآن ثم تلخيصها بعد ذلك في عناصر متنوعة مبينًا عناصر المعالجة لهم[١٣٢]، ومن ذلك أيضًا ما فعله في الملحق الثاني من نفس السورة حول "سياسة الداعي في أحوال المدعوّ الذي لم يستجب"[١٣٣]، وغيرها، وأكثر هذا يظهر في ملحقات السور.

وأما الثالث والأخير فهو الذي يعنى بتتبع لفظة معينة واستخدام القرآن لها، وهذا يدل على اهتمام الشيخ بهذا الأمر، مثل تتبعه لكلمة الصراط عند تفسيره لسورة الفاتحة[١٣٤]، وكتتبعه للفظ "الرياح" في سورة المرسلات حيث تتبع في القرآن كله مبينًا ما يميز كل نص[١٣٥]، وأمثلة ذلك كثيرة.

المسألة الثالثة: القضايا العلمية

لقد وضع الشيخ رحمه الله ضمن قواعد التدبر الأمثل قاعدة تتعلق بهذا الأمر، بين فيها موقفه وما ينبغي على المفسر اتباعه وتوظيفه عند تدبره الآيات التي تحتوي على تلك الإشارات العلمية، ويتلخص موقفه فيما يلي:

١- وجوب فهم النص أو النصوص القرآنية بمقتضى الحقائق العلمية التي ثبتت بأدوات ووسائل البحث العلمي الإنساني ثبوتاً قطعياً.

٢- الفرضيات العلمية التي لم يقل العلم فيها كلمته الأخيرة القطعية يمكن أن يفسر النص القرآني بمقتضاها ضمن ضوابط التفسير، ولكن دون جزم ولا قطع، ويبقى الباب مفتوحاً لاحتمالات فهم النص المتعددة.

٣- لا يجوز تطويع النصوص القرآنية وإكراهها بتأويلات متعسفة لتوافق القضايا العلمية التي لم تثبت، أو لا يمكن فهمها بمقتضى قواعد فهم النصوص العربية، وعلى متدبر القرآن أن يحذر من الانزلاق في المزالق الخطرة التي تجر إلى فهم كلام الله على غير ما أذن الله به في تدبر قرآنه.[١٣٦]

ومن خلال ما سبق يظهر أن الشيخ رحمه الله يرى بضرورة التفسير العلمي للآيات التي تضمنت الكلام حول قضايا علمية مختلفة أو أشارت إلى مثلها، وقد قام رحمه الله بتطبيق قاعدته في تفسيره، وهذا ظاهر في تفسيره عند مجيء القضايا العلمية المختلفة، فيقوم بتدبر الآيات بمقتضى ما ثبت من العلوم، مستنبطاً ما فيها من إشارات حول هذه العلوم، مبيناً ما في القرآن من دلائل وراء ذكر هذه العلوم، ومشيراً إلى هدف القرآن من إيرادها، خلوصاً إلى عد ذلك من عناصر الإعجاز القرآني، وأحيانًا كان – رحمه الله- يحيل القارئ إلى مكان وجود هذه القضايا العلمية للتوسع فيها.

ومن الأمثلة على توظيفه للقضايا العلمية في التفسير ما جاء في تفسيره لقوله تعالى {والسماء ذات الرجع} [الطارق:١١]، حيث قال: "ونتساءل عن السبب الداعي لوصف هذه السماء القريبة منا بأنها ذاتُ الرجع، أي: ذات الإرجاع. وتجيبنا الظاهرة المتكررة التي أدركها الأقدمون، وهي ظاهرة تبخر المياه وتصاعدها إلى طبقاتٍ ما من الغلاف الغازي حول الأرض، وهو الذي تتكون منه السماء القريبة الملتصقة بها، ضمن سنن وأسباب محكمة بقضاء الله وقدره، ويرجع إلى الأرض مطراً، ماء حلواً أو ثلجاً أو برداً، لسقيا الناس والدواب ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفة... وكل الناس يلاحظون أن أي شيء يصعد في هذه السماء القريبة من الأرض والملاصقة لها بقوة ما، فلا بد أن يرجع إلى الأرض متى تلاشت القوة التي جعلته يصعد فيها، وقد عرف الباحثون العلميون سبب ذلك، منذ أدركوا قانون الجاذبية بين الأشياء. فهذه السماء القريبة ذات رَجع لكل ما يصعد فيها من الأرض، إذ هو يرجع إليها بقوة جاذبية الأرض له..."[١٣٧] ثم يذكر الأشعة الضوئية التي تلامس الغلاف الجوي من خارج الأرض وأن هناك قسم يرجعه

وهو القسم الضار حتى لا يصل إلى الأرض.

ومنه أيضًا ما جاء في تفسيره لقوله سبحانه ﴿ فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١) مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٢٤-٣٢] حيث قال: "وظاهرٌ أنه ليس المراد مجرد النظر بالباصرة، بل المراد النظر المصحوب بالتفكر والتأمل، واستخراج الروابط والعلل والأسباب والغايات، ومعرفة دلائل الآيات الكونية الكثيرة المنبثة في الأرض وفي السماء، لإعداد طعام الإنسان في الكون، ومنها أشعة الشمس وما يسببه القمر من مد وجزر في البحار، ومنها تبخر المياه من المحيطات، وتكوين السحاب وسوقُها، وإنزال الأمطار من السماء، إلى غير ذلك مما يكتشفه البحث العلمي الإنساني" ثم قال: "ولعلماء الكونيات في هذا المجال بحوث كثيرة دقيقة نفيسة، وهي مشحونة بأدلة آيات الله الخالق البديع العليم الحكيم القدير"[١٣٨].

المسألة الرابعة: القضايا العقدية[١٣٩]

اعتمد الشيخ عبد الرحمن رحمه الله على القرآن والسنة وما فيهما من أدلة وحجج وبراهين في استعراض موضوعات العقيدة وإثباتها والحديث عنها وبيانها، ولم يتبع مذهباً معيناً من مذاهب أهل الاعتقاد، وفي هذا يقول: "ولم ألتزم مذهباً معيناً من مذاهب أهل الاعتقاد، إلا مذهب أهل السنة والجماعة بشكل عام، وطريقة السلف هي الطريقة التي رأيتها أقرب لسلامة الفطرة وصفاء الفكرة، وبُعدها عن التعقيدات الفلسفية المتشعبة التي تكثر متاهاتها وكبواتها"[١٤٠]، وهو الأمر الذي سار عليه في تفسيره، فلم ألحظ ذكراً للمذاهب الاعتقادية أو مناقشات ومجادلات مثل تلك التي تحصل بينهم أو بياناً لاختلافهم في الموضوعات، وإليك بعض الأمثلة على ذلك من تفسيره:

١- يقول عند قوله تعالى ﴿وَلا تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢]: "أي يريدون رضا ذاته ونفسه عنهم، يطلق الوجه ويراد به الذات كلها وهذا هو المراد هنا، ويطلق الوجه على القصد وعلى الجهة والناحية إلى غير ذلك من إطلاقات، والقرائن تدل على المراد"[١٤١].

٢- وعند قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩] يقول: "أي وقدرت وقضيت إيصالك إلى فرعون، وإلقاء محبتك في قلوبهم، لتُنَشَّأ في القصر الفرعوني إنشاءً خالصاً، تُصنه فيه صنعاً راقياً بعنايتي بك، وحمايتي ورعايتي لك، (على عيني): أي على المكان المحاط بعنايتي بك وحمايتي ورعايتي لك، أطلق لفظ العين وأريد به بالغ العناية، لأن العين بها تكون الرؤية والمراقبة فيكون موسى على المواضع التي تشملها وتحيط بها عناية الله الدائمة له كدوام رؤية الله لكل ما يمكن عقلاً رؤيته في الوجود كله"[١٤٢].

٣- وعند قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] قال: "الاستواء لغة: الاستقامة والاعتدال، واستوى فلان على سرير الملك إذا تولى تصريف شؤون مملكته، وقد وصف الله نفسه بأنه استوى على العرش، وقد كان الله قبل أن يخلق الخلق ولم يكن معه شيء، ووصف نفسه بأنه استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، استواء وصف الله به نفسه فنحن نثبته ضمن حدود ما أثبته لنفسه جل جلاله وعظم سلطانه، وهو استواء يليق بذاته سبحانه عما وصفه به الواصفون، وأحسن بيان حول الاستواء ما قاله الإمام مالك رحمه الله: [الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة]، العرش: مخلوق أعظم فوق السموات السبع ومحيط بها"[١٤٣].

٤-وعند قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [الفجر:٢٢] قال: "أي: وجاء ربك الله الخالق البارئ المصور المهيمن بصفات ربوبيته مجيئًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه"[١٤٤].

المسألة الخامسة: ترتيب القرآن

اختار الشيخ عبد الرحمن حبنكة تفسير القرآن حسب تاريخ نزول سوره لا حسب ما هو موجود في المصاحف اليوم، ورأى أن ذلك من التدبر الأمثل لكتاب الله الذي ينبغي أن يسلك طريقه المفسر، وقد أشار إلى أنه اكتشف خلال تدبره القرآن على هذا الترتيب أموراً جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين،وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة للرسول صلى الله عليه وسلم وللذين آمنوا به واتبعوه، وللذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول متريثين أو مكذبين كافرين[١٤٥].

وقد اجتهد رحمه الله في وضع ترتيب لسور القرآن، وسلك في ذلك طريقين:

الأول: النظر في ترتيب السور المُبَيَّن عند العلماء بالتنزيل وما ورد في ذلك من روايات كتلك التي رويت عن عكرمة وأخرى عن ابن عباس وغيرها.

الثاني: إعمال العقل، فقد ذهب إلى أن ترتيب النزول قد يُعرف بالتبصر العقلي الهادي إلى قواعد سنة الله التي جرى وفقها إنزال معظم النصوص القرآنية وأحكام التشريع[١٤٦]. وبناء على هذا وضع جدولاً بين فيه ترتيب سور القرآن[١٤٧] وسار عليه في تفسيره.

وكان عند ذكره للسورة في تفسيره يذكرها واضعاً إياها بين قوسين على الشكل التالي مثلاً: ما جاء في سورة [هود/١١ مصحف/٥٢ نزول] ونحو ذلك.

وهذه المسألة من المسائل التي ظهرت على يد بعض المفسرين في العصر الحديث فقط، وهي قضية مبتناها العقل وحده ولا يوجد عندنا نص يُثبت مثل هذا الترتيب، وسأبين خطأ هذا المذهب في المبحث القادم عند ذكر المآخذ على الشيخ بإذن الله.

المسألة السادسة: اهتمامه ببيان السنن الإلهية

اهتم الشيخ رحمه الله ببيان السنن الإلهية ما أمكن، وهذا من المباحث الجليلة، ومن ذلك قوله في ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق:١٢-١٥] ما نصه: "سنة الله في المكذبين الأولين أن يتوعدهم بالعذاب والإهلاك إذا أصروا على كفرهم، وأن يحقق فيهم وعيده متى اقتضت حالتهم التي وصلوا إليها إنزال الهلاك فيهم... أي: والذين كذبوا محمدًا تنطبق عليهم هذه السنة من سنن الله فليرتقبوا إهلاكهم متى صارت حالة عامتهم ميؤوسًا منها، وكثر إفسادهم في الأرض"[١٤٨]، ويقول عن الدرس الثالث في سورة المرسلات: "درس تضمن الاستدلال على قانون الجواء الرباني، والقدرة على البعث، بعرض ظواهر كونية معلومة من أحداث تاريخ الأمم الغابرة ذات الآثار الباقية، وظواهر كونية مشهودة، في مجاري تصاريف الله عز وجل في كونه، فمن الظواهر الكونية التاريخية الغابرة إهلاك الله المكذبين المجرمين الأولين، وإهلاكه أمثالهم ما توالت القرون..."[١٤٩].

هذه باختصار أهم معالم منهج الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، أسأل الله تعالى أن أكون قد أحطت بطريقته في تفسيره، جزاه الله عنا وعن المسلمين كل خير، فقد كان تفسيره تفسيراً عظيماً وضع فيه المؤلف خلاصة ما توصل إليه فكره في سبعين سنة، والجوانب التي تؤخذ للتفسير كثيرة جداً، فقد حوى في طياته فوائد جمة يتلقفها القارئ في كل عباراته، لكن الإنسان بطبيعته مهما طلب الكمال فلن يصل إليه، ولا يعدم كل كتاب من ملاحظات عليه، لكن ذلك لا يفقده قيمته العلمية.

المبحث الثالث: القيمة العلمية لهذا التفسير

المطلب الأول: ما يؤخذ للتفسير

أما الملاحظات التي تؤخذ للتفسير فكثيرة، فقد حوى كتابه على العلوم المختلفة التي تعين على فهم كتاب الله، فقد اعتمد رحمه الله على التفسير بالمأثور وذكر أسباب النزول، كما أننا نراه لا يأخذ إلا بالقراءات الصحيحة المتواترة دون غيرها من القراءات الشاذة والضعيفة، وهذا مما يؤخذ له، كذلك قيامه بمناقشات كثيرة في كتابه مدعماً آراءه بالحجة والدليل والبرهان يضفي على تفسيره قيمة علمية كبيرة، ثم إن قيامه بالاعتناء بجانب اللغة وبيان الألفاظ ودلالاتها في القرآن الكريم واعتناؤه بالنحو والبلاغة، كل ذلك يزيد تفسيره قوة فالقرآن أنزل بلسان عربي مبين، بالإضافة إلى قيامه بالدراسات الموضوعية في تفسيره من خلال إبراز الوحدة الموضوعية للسورة وأوجه المناسبات كل ذلك يجعله ذا قيمة علمية كبيرة.

المطلب الثاني: ما يؤخذ على التفسير

أما الملاحظات التي تؤخذ على التفسير فليست كثيرة وهي:

١- استخدامه لترتيب نزول السور في تفسيره، فقد استخدم الشيخ -رحمه الله- طريقة حديثة في تفسير القرآن الكريم وهي تفسيره حسب ترتيب نزول سوره، وهي طريقة لم يستخدمها إلا القليل من أبناء القرن الماضي ومن الذين سبقوا الشيخ في هذه الطريقة الأستاذ محمد عزة دروزة[١٥٠] بتفسيره المسمى "التفسير الحديث" والشيخ عبد القادر ملا حويش[١٥١] في تفسيره "بيان المعاني على حسب ترتيب النزول"، ولم ينقل عن القرن قبل الماضي استخدامهم لهذه الطريقة في تفسير القرآن الكريم، وتقوم هذه الطريقة ابتداء على تقسيم سور القرآن إلى مكية ومدنية ومن ثم ترتيب سور كل قسم منها، والقيام بعد ذلك بتفسير هذه السور على منهج كل مفسر من المفسرين الذين اعتمدوا هذه الطريقة. وهذه الطريقة تخالف ترتيب السور في المصحف وكذلك تخالف ما ذهب إليه جل المفسرين من تفسير للقرآن بحسب الترتيب الذي بين أيدينا وفي هذا يقول الدكتور عدنان زرزور: "أما ترتيب سور القرآن بحسب النزول لا للتدوين في المصاحف، ولكن في كتب التفسير أو بغرض التفسير فقد ذهب إلى جوازه بعض العلماء وإن كنا نرى أنه غير مستساغ، وقد لا يكون كذلك ممكناً بغير قدر من التجاوز، لأن السورة من القرآن لم تكن تنزل دائماً مرة واحدة أو لم تكن تنزل آية أو آيات من سورة ثانية إلا بعد أن يكتمل بناء السورة السابقة، فالترتيب بحسب النزول لا يمكن وصفه بالدقة إلى جانب ما فيه من تضخيم مرحلية البناء، وتضيق ساحة النص القرآني الذي أراد الله أن يكون عاماً شاملاً يعين تنجيمه وأسباب نزوله على مزيد من الفهم لا على الانغلاق في حدود البيئة أو الزمان..."[١٥٢].

ويرى أصحاب هذه الطريقة أن لها جدوى وقيمة، يقول

الأستاذ محمد عزة دروزة: "إن هذه الطريقة تفيد القارئ في تتبع سور التنزيل القرآني مرحلة فمرحلة، والاستشعار بجو هذه السورة، حيث يكون هذا الترتيب أدعى إلى تفهم القرآن وحكمة التنزيل، كما أنه يتسق مع المنهج الذي أعتقده الأفضل لفهم القرآن وخدمته، إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمناً بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدق، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جو نزوله وجو ظروفه ومناسباته ومداه ومفهوماته وتتجلى حكمة التنزيل"(١٥٣).

ويبين ذلك الشيخ عبد الرحمن حبنكة بقوله: "إن مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه وملاحظاتها لدى التدبر تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع فيها بعض المفسرين، فبعضهم قد يأتي بقصص مدنية فيضعها شرحاً أو سبباً لنص مكي، ويُحمّل بذلك النص القرآني ما لا يحمل..."(١٥٤).

لكن المخالفين لهذه الطريقة ذكروا مجموعة من الملاحظات والانتقادات والمخاطر التي تحول دون الوصول إلى ما أراده مستخدمو ترتيب النزول في تفاسيرهم، فقد أشار سيد قطب – رحمه الله– مثلاً إلى وجود هذه المخاطر بقوله: " وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقاً، كما أنها تجعل النتائج التي يُتوصل إليها تقريبية ظنية وليست نهائية يقينية، وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة"(١٥٥).

ونضيف إلى كلام سيد أن السور لم تكن تنزل متكاملة بل قد تنزل سورة مثل سورة البقرة في عشر سنوات وتنزل خلالها معظم السور المدنية، فهذا لا يعين على فهم التدرج في الدعوة والتربية والمنهج بشكل دقيق بل يبقى الأمر ظنياً

ومن الانتقادات على هذه الطريقة أيضاً:

أ– عدم وجود ترتيب يثبت على النقد أو يستند إلى أسانيد قوية ووثيقة(١٥٦).

ب– في استخدام هذه الطريقة طمس لجوانب من فهم القرآن، والتعرف إلى أسرار إعجازه تتعلق ربما في المناسبات بين السور وبيان أسرار ترتيبها، والتي أخذت جهداً كبيراً من العلماء للوقوف عليها وتجليتها(١٥٧).

ت– نشأ بين المفسرين (على هذه الطريقة) اختلاف في ترتيب السور.

ث– المفسرون بهذه الطريقة قاموا بتفسير السورة كاملة، فهل هذا يعتبر من مراعاة ترتيب النزول؟، إن تفسيرهم للقرآن لم يكن حسب ترتيب النزول؛ إذ إنهم اعتبروا ترتيب السور باعتبار صدرها متى نزل دون باقي أجزائها التي قد تنزل على أوقات متفرقة.

فخلاصة ما ذهبوا إليه هو أنهم خالفوا الترتيب الذي أجمع أغلب الأمة على وقفيته، ولو أنهم التزموا الترتيب الذي عليه القرآن لكان أجدى وأجود إذ إنهم بذلك يسخرون جهودهم لإبراز جوانب الإعجاز في ترتيب السور، لكن هذا لا يجعلنا نقلل من جهدهم فقد بذلوا خلاصة ما توصلت إليه عقولهم ووضعوه في تفسيرهم لكلام الله عز وجل، فبارك الله فيهم وجزاهم خيراً عن جهودهم المبذولة في خدمة كتاب الله.

٢– أنه لم يَرُدَّ كل ما ذكر من إسرائيليات، فقد كان أحياناً يصحح بعض ما جاء في الرواية أو يأخذ بعض المعلومات منها، هذا بالإضافة إلى اعتماده على الكتاب المقدس وقاموسه، والنقل عن كتب أهل الكتاب، صحيح أنه كان غالباً ما يعبر عن رفضه لما جاء فيها، لكنه باب ضرره أكبر من نفعه، ونتج عنه اهتمامه ببيان بعض المبهمات وكذلك التفصيل في بعض المواضع في الأمور التاريخية أثناء دراسة القصص، وقد تم بيان موقفه عند الحديث عن الإسرائيليات في تفسيره.

٣– لم يكن رحمه الله يعتني دائماً بتوثيق كلام العلماء، بل كان – غالباً – ما يعزو القول إلى جمهور المفسرين أو النحاة أو المؤرخين، وهذا يزيد صعوبة الرجوع إلى مثل هذه الأقوال ومتابعتها.

٤– وجود كثير من الإحالات على كتب أخرى، الأمر الذي يقطع استرسال القارئ ويحرمه من الوقوف على الموضوع خاصة إذا لم يكن بين يديه الكتاب المُحالُ إليه.

٥– اعتداده في بعض الأحيان برأيه وتقديمه لنفسه على غيره، لكن في الأغلب كان متواضعاً في كلامه مهذباً في عرض رأيه، لا ينتقص من سبقه.

٦– إكثاره من جعل آيات مدنية في سور مكية دون تحقيقها.

٧– خروجه عن النص أحيانًا، فنجده في سورة عبس يجعل في بداية السورة مبحثًا بعنوان "لمحة من أخبار عبد الله بن أم مكتوم"، وفي حديثه عن سورة الفيل يورد في بدايتها قصة أصحاب الفيل ناقلًا إياها من كتب السير بتوسع في خمس صفحات، ومثله في سورة البروج وغيرها.

هذه باختصار أهم الملاحظات على تفسيره، والحق يقال أنه تفسيرٌ جم المنافع، زخر بكثير من العلوم المختلفة، بالإضافة إلى يُسر عبارته وسهولة فهمها للقارئ، ولا يضيره أن وُجدت بعض الملاحظات عليه، فالكمال المطلق لله وحده.

نسأل الله تعالى أن يجزي الشيخ عبد الرحمن حبنكة خير ما جزى به أحداً قط، وأن يجعل هذا العمل شاهداً عليه وعلى

علمه وشفيعاً له يوم القيامة، فخدمة كتاب الله أمر عظيم يُجزى صاحبه عنه كل خير.

الخاتمة

الحمد لله الذي أتم لنا هذا البحث حول منهج عالم من علماء المسلمين في تفسيره وهو الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، وقد ظهر لنا بعد دراسة منهجه النتائج الآتية:

١- من خلال التعريف بالشيخ توصلنا إلى نتيجة مفادها أن البيئة التي عاش فيها الشيخ مع العلم والدعاة كان لها أكثر الأثر في صبغ عقل الشيخ صبغة علمية بحتة، ظهرت من خلال ما تركه من مكتبة.

٢- لقد بنى الشيخ طريقته في تفسيره على ترتيب نزول القرآن، وهي طريقة لا تحقق لمن قام بها ما يريد من أهداف، كما أنها طريقة محتملة غير منضبطة، ولا يوجد بها من الدقة ما يجعلنا نعتمدها في التفسير.

٣- قام الشيخ بالبناء على ما وصل إليه السابقون، من خلال اعتماده على كتب في التفسير سابقة، وكتب في العلوم المختلفة كذلك.

٤- سار في تفسيره على طريقة ممنهجة واضحة لم يحدْ عنها، وتقسيمات لآيات السور جاعلاً كلَّ مجموعة منها درساً، مما يجعل التفسير مريحاً عند تصفحه.

٥- كان كثير المناقشات لأقوال السابقين من المفسرين والنحويين والبلاغيين، وكثير الرد لأقوالهم، مما جعل له شخصية في التفسير مستقلة.

٦- بعض القضايا في منهجه لم يكن للشيخ بها سوى التقليد للسابقين، دون مناقشة أو رد، كتقسيمات المأثور عنده، والمكي والمدني وغيرهما.

٧- الشيخ كثير العناية بالمناسبات وباللغة في التفسير، لكنه يستفيض أحياناً في قضايا الأعاريب فيقوم بمناقشات لأدلة الإعراب وللنحويين.

٨- لا يؤمن الشيخ بالترادف بل يحاول أن يبين الفروق بين الألفاظ المتقاربة، كما أنه ينفي وقوع التكرار أيضاً.

٩- يؤمن بضرورة التفسير العلمي لكن بشروط، وهو بذلك يوافق المعتدلين في هذه المسألة.

هذه أهم النتائج التي برزت في هذا البحث، والذي نسأل الله تعالى أن يتقبله وأن يجعله في ميزان حسناتنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

(١) هو الطالب نادي حسن صبرا وقد وسم رسالته بـ: "منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، وقد أجيزت هذه الرسالة سنة ٢٠٠٦م من كلية الشريعة بالجامعة الأردنية.

(٢) انظر: جراح، عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفسر: زوجي كما عرفته، ص١١، ط١.

(٣) الميداني، الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني، ص٦٤، ط١.

(٤) انظر: المصدر السابق، ص٥١-٥٦ (باختصار).

(٥) انظر: الوالد الداعية: ص٦٩.

(٦) انظر: الوالد الداعية، ص٧٤-٧٥.

(٧) انظر: زوجي كما عرفته، ص١٣.

(٨) انظر: الوالد الداعية، ص١٤٠.

(٩) انظر: المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج٣/٦٠، ط٤.

(١٠) انظر: زوجي كما عرفته، ص١٩.

(١١) نادي حسن صبرا، منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير (رسالة ماجستير).

(١٢) الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١، ج١/٦.

(١٣) المصدر السابق، ج١/٥.

(١٤) انظر: الموقع الالكتروني: http://tafsir.net/vb/tafsir4961.

(١٥) الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر- ج١/٦.

(١٦) انظر: مقدمة الكتاب.

(١٧) الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، ص٢٧، ط٣.

(١٨) المصدر السابق، ص٢٨.

(١٩) المصدر السابق، ص٤٥.

(٢٠) انظر: المصدر السابق، ص١٧٨ وما بعدها.

(٢١) انظر: المصدر السابق، ص٤٦٨ وما بعدها.

(٢٢) المصدر السابق، ص٤٧٠.

(٢٣) انظر: المصدر السابق، ص٤٨٠ وما بعدها.

(٢٤) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٥٩.

(٢٥) انظر: الميداني، معارج التفكر ودقائق التدبر، ج٢/٦٦٥.

(٢٦) المصدر السابق، ج٣/٣٣٤.

(٢٧) المصدر السابق، ج٤/٥١.

(٢٨) المصدر السابق، ج٤/٤٠٢.

(٢٩) المصدر السابق، ج٤/١٣٠.

(٣٠) المصدر السابق، ج١/٦٠٥-٦٠٦.

(٣١) المصدر السابق، ج١/٤٦٧.

(٣٢) المصدر السابق، ج١/٥٥٠.

(٣٣) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٦٧.
(٣٤) المصدر السابق، ج٥/١٥.
(٣٥) المصدر السابق، ج٤/٤٢٢.
(٣٦) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٧٠.
(٣٧) معارج التفكر ودقائق التدبر، ج٢/٣١.
(٣٨) المصدر السابق، ج١/٥١٨.
(٣٩) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٨٠.
(٤٠) قواعد التدبر الأمثل، ص١٣٣.
(٤١) انظر هذه الأقسام: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٩٣.
(٤٢) معارج التفكر، ج١/٥٧٣. والأمثلة على ذلك كثيرة، انظر مثلاً: ج١/٣٠٨، ج١/٥٦٠، ج٢/٢٩٩، ج٨/٤٣٤، ج١١/٥٤٧، وغيرها.
(٤٣) المصدر السابق، ج٩/٦١٠. والأمثلة على ذلك مبثوثة في تفسيره، انظر مثلاً: ج٨/١٠٤، ج٨/١٦٨ فما بعدها، وغيرها.
(٤٤) المصدر السابق، ج١٢/٤٢٠.
(٤٥) المصدر السابق، ج٣.
(٤٦) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره، ص٩٩.
(٤٧) انظر: المصدر السابق، ج٢/٥٩٩-٦٠٠.
(٤٨) المصدر السابق- ج٩/٣٧٨.
(٤٩) المصدر السابق- ج١١/٨٩.
(٥٠) المصدر السابق- ج٣/٧٠.
(٥١) المصدر السابق- ج٢/٥٩٣.
(٥٢) المصدر السابق- ج٩/١٨٥.
(٥٣) البخاري، (٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح- كتاب التفسير- باب تفسير سورة "إنا أعطيناك الكوثر"- ح(٤٦٨٠)، ط٣.
(٥٤) معارج التفكر- ج١/٦٤٩.
(٥٥) انظر مثلاً: ج١/٥٤٢، ج٢/٣٦، ج١/٢٧٦، وغيرها.
(٥٦) ابن حنبل، (٢٤١هـ)، المسند ح(٢٠٣٠٠)، ط٢- ١٤٢٠هـ وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لجهالة الرجل وأبيه.
(٥٧) معارج التفكر- ج٦/١٦.
(٥٨) أخرجه: الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى (٢٧٩هـ)، السنن- كتاب الإيمان- باب ما جاء في حرمة الصلاة- ح(٢٦١٦)، جمعية المكنز الإسلامي- ١٤٢١هـ، والنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب(٣٠٣هـ)، السنن الكبرى- كتاب التفسير- باب سورة السجدة- ح(١١٣٩٤)، ط١- ١٤١١هـ.
(٥٩) معارج التفكر- ج١/٢٣٢.
(٦٠) انظر مثلاً: ج٢/٦١٥.
(٦١) انظر مثلاً: ج٢/١١٣.
(٦٢) انظر مثلاً: ج٩/٧٥٧.
(٦٣) معارج التفكر: ج٢/٤٠٤.
(٦٤) معارج التفكر- ج٩/٥٢٠.
(٦٥) انظر: قواعد التدبر- ص١٣٣.
(٦٦) معارج التفكر- ج١/٢٠٨.
(٦٧) المصدر السابق- ج١/٣١.
(٦٨) المصدر السابق- ج٥/٥٤٥.
(٦٩) المصدر السابق- ج٣/٣٣٤.
(٧٠) انظر: عباس، التفسير أساسياته واتجاهاته- ص١٨٣-١٨٩، ط١.
(٧١) قواعد التدبر الأمثل- ص٢٠٣.
(٧٢) المصدر السابق- ص٢٠٣.
(٧٣) المصدر السابق- ص٢٠٤.
(٧٤) انظر: المصدر السابق- ص٢٠٥.
(٧٥) معارج التفكر- ١/٩٨.
(٧٦) معارج التفكر- ٢/٩٥.
(٧٧) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره- ص١٣٨.
(٧٨) انظر مثلاً ما جاء في أسباب نزول سورة لقمان ونقله عن أبي حيان ج١١/٦٧٨، وانظر ما نقله عن الطبري ج٢/١٤٨، وغيرها.
(٧٩) انظر مثلاً ما أورده في سبب نزول سورة عبس ٢/٢٠٨، وآية الروح ٩/٧١٩.
(٨٠) ويبدو أن الشيخ تأثر برأي الزركشي في البرهان والسيوطي من بعده، إلا أن الراجح هو عدم وجود آيات مكية في سور مدنية إذ لا يُعقل أن تبقى الآية التي نزلت في مكة معلقة إلى أن تأتي السورة المدنية لضمها، أما وجود الآيات المدنية في السور المكية فقليل جداً، ولا مجال هنا للإطالة في هذا البحث، وللاستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب: إتقان البرهان- للدكتور فضل حسن عباس عند حديثه عن المكي والمدني- ج١/٣٩٠-٤١٢.
(٨١) قواعد التدبر- ص١٨٧.
(٨٢) فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج١/٣٨٩، دار النفائس، ط٢، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م.
(٨٣) معارج التفكر- ج٤/٦٦٧.
(٨٤) إتقان البرهان- ج١/٣٩١.
(٨٥) قواعد التدبر الأمثل- ص٧٢٢.
(٨٦) المصدر السابق- ص٧٦٤.
(٨٧) معارج التفكر- ج٦/١٨٣.
(٨٨) المصدر السابق- ج٦/٣٨٦.
(٨٩) معارج التفكر- ٢/٢٨١.
(٩٠) المصدر السابق- ١/٦٦٣.
(٩١) انظر: المصدر السابق- ٢/٥٢٧، ٥٣١-٥٣٢.
(٩٢) انظر: الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث- ص٣١-

٤٥، ط٢.
(٩٣) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره- ص١٢٠.
(٩٤) معارج التفكر- ج١٠/٣٩٦.
(٩٥) المصدر السابق- ج١٢/٥٤.
(٩٦) المصدر السابق- ج٣/٥٧٩.
(٩٧) المصدر السابق- ج٩/٣٧٨.
(٩٨) المصدر السابق- ج٩/٣٨١.
(٩٩) المصدر السابق- ج٣/٥٢٧.
(١٠٠) المصدر السابق- ج٩/٣٩٧.
(١٠١) المصدر السابق- ج٢/٥٠٣.
(١٠٢) المصدر السابق- ج٢/٢٥٣.
(١٠٣) المصدر السابق- ج٢/٥٨٩.
(١٠٤) المصدر السابق- ج٢/١٠٠.
(١٠٥) المصدر السابق- ج٢/٢٥٠.
(١٠٦) قواعد التدبر- ٥٦٧.
(١٠٧) معارج التفكر- ج٢/٣٧٠.
(١٠٨) المصدر السابق- ج٣/٣٦.
(١٠٩) المصدر السابق- ج٣/٣٠.
(١١٠) المصدر السابق- ج٣/٤١.
(١١١) المصدر السابق- ج٦/٣٥.
(١١٢) المصدر السابق- ج١٠/٦٢٧.
(١١٣) المصدر السابق- ج٦/١٠٧.
(١١٤) المصدر السابق- ج٣/٢٦.
(١١٥) المصدر السابق- ج٦/٧٣٢.
(١١٦) المصدر السابق- ج١/٢٩٨، وأمثلة ذلك كثيرة، انظر مثلاً: ج٧/٢٥٣، ٥٤٧/١٢، ٧٩٢/١٢، ٢٥٩/٧، ٢٢١/٩ وغيرها.
(١١٧) المصدر السابق- ج٣/٣٣.
(١١٨) المصدر السابق- ج٨/٥٢٥.
(١١٩) المصدر السابق- ج١/٥٣٠.
(١٢٠) المصدر السابق- ج٢/٥٩٠.
(١٢١) المصدر السابق- ج٢/٥٩٢. والأمثلة على مسائل البيان كثيرة، انظر مثلاً: ج١/٥٣٠، ٨١/٥، ٨٤/٥، ٣٣٨/٨، ٦٨١/١٠، وغيرها.
(١٢٢) المصدر السابق- ج٢/٢٥٧-٢٥٨.
(١٢٣) المصدر السابق- ج٢/٣٦٨.
(١٢٤) المصدر السابق- ج٢/٣٧٠.
(١٢٥) المصدر السابق- ج٧/٢٦٣.
(١٢٦) المصدر السابق- ج٨/٧٣٥. وأمثلة ذلك كثيرة، انظر مثلاً: ٦١٩/١، ٢٦٠/٢، ٣٣١/٢، ١٤٨/٥، ٢٢٣/٩ وغيرها.
(١٢٧) المصدر السابق- ج١/٥٨٤.
(١٢٨) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره- ص١٤٤.
(١٢٩) المصدر السابق- ١/٤٥١-٤٥٢.
(١٣٠) المصدر السابق- ٦/٩٣.
(١٣١) المصدر السابق- ٢/١٧٢.
(١٣٢) المصدر السابق- ٢/١٩٣.
(١٣٣) المصدر السابق- ١/٣١٩.
(١٣٤) المصدر السابق- ٢/٦٢١.
(١٣٥) انظر: قواعد التدبر- ص٢٢٥-٢٣٨.
(١٣٦) معارج التفكر- ج٣/٢٧٥-٢٧٦.
(١٣٧) المصدر السابق- ٢/٢٤٦-٢٤٨.
(١٣٨) انظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره- ص٢٠٢.
(١٣٩) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها - ص٨.
(١٤٠) معارج التفكر- ج١١/٢٥٠.
(١٤١) المصدر السابق- ج٨/٩٣.
(١٤٢) المصدر السابق: ج٤/٢٨٧.
(١٤٣) المصدر السابق- ج٢/٥٤١.
(١٤٤) انظر معارج التفكر- ج١/٦.
(١٤٥) قواعد التدبر- ص١٥٣.
(١٤٦) المصدر السابق- ص١٧٨.
(١٤٧) معارج التفكر- ٣/٧٣.
(١٤٨) المصدر السابق- ٢/٥٤٨.
(١٤٩) محمد عزة بن عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، ولد في مدينة نابلس في فلسطين عام ١٨٨٨م، له مؤلفات كثيرة منها: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، والتفسير الحديث، والدستور القرآني في شؤون الحياة وغيرها. [انظر: السلمان، فريد مصطفى، محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم- ص٣٣-٦٠، ط١].
(١٥٠) هو العالم المفسر القاضي (١٨٨٠م-١٩٨٧م) درس في بغداد ورحل إلى دير الزور في سوريا واستوطن بها، لازم الشيخ حسين الأزهري وأجيز منه، له كتب عديدة لم يطبع منها سوى تفسيره الرائد في مجاله. [انظر: محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام للزركلي- ج٥/ ٣٠١، ط١].
(١٥١) زرزور، مدخل إلى تفسير القرآن الكريم وعلومه- ١٤١، ط١.
(١٥٢) دروزة، التفسير الحديث- ج١/١٢،.
(١٥٣) قواعد التدبر الأمثل- القاعدة التاسعة- ص١٥٢.
(١٥٤) سيد قطب، في ظلال القرآن- ج٣/١٤٢٩، ط٣٤، ١٤٢٥هـ.
(١٥٥) المصدر السابق.
(١٥٦) فريد السلمان، محمد عزة دروزة ، ص١٢٦.

المصادر والمراجع

البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، ١٤٠٧هـ، ط٣.

جراح، عائدة راغب، ١٤٢٢هـ، زوجي كما عرفته، دار القلم، دمشق.

السلمان، فريد، ومحمد دروزة، ١٤١٤هـ، تفسير القرآن الكريم، ط١، مكتبة الرشد، الرياض.

عباس، فضل، ٢٠١٠م، اتقان البرهان في علوم القرآن، ط٢، دار الفائس.

المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم دار الشواف، الرياض.

الميداني، عبدالرحمن، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، معارج التفكر ودقائق التدبر، ط١.

الميداني، عبدالرحمن، ١٤٢٣هـ، الوالد الداعية، ط١، دار القلم، دمشق.

الميداني، عبدالرحمن، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، ط٣، دار القلم، دمشق.

The Approach of Sheikh Abdul Rahman Hpennekh in his Interpretion (Tafseer)

*Jehad M. Al-Nusairat and Obaidah A. As'ad**

ABSTRACT

This research includes a trying to track the approach of Sheikh Abdul Rahman Hpennekh in his interpretation (Tafseer), preceded by the definition of him, his interpretation, and the writing rules in which he built his interpretation on.

It has been emerged through the research that this interpretation is not without criticism. Although he was interseted is the Mathur, events and thematic unity as well as frequent readings and language, etc., he presented non defended interpreted Israelis and texts by non worthless redundancy, and he did not document the words of the scholars. The study shows that his interpretation is widely full of knowledge and meanings, and it can be described as an objective interpretation.

Keywords: Interpretation, Abdul Rahman Hpennekh.

* Faculty of Shari'a, The University of Jordan, Amman. Received on 22/11/2011 and Accepted for Publication on 7/4/2013.